كتاب في جريدة
أصدرته منظمة اليونسكو عام 1996
عدد 75 الأربعاء 3 تشرين الثاني / نوڤمبر 2004

حارث المياه

هدى بركات

رسوم تانباك




الشريك الثقافي



المؤسسة الراعية

إتفاقية التعاون بين منظمة اليونسكو ومؤسسة محمد بن عيسى الجابر



وقّع في يوم الجمعة 19 سبتمبر 2003 في مقرّ اليونسكو بباريس المدير العام لليونسكو المستر كويشيرو ماتسورا وسعادة الشيخ محمد بن عيسى الجابر رئيس مجلس إدارة مجموعة إم بي أي العالمية MBI INTERNATIONAL ومؤسّس إم بي أي MBI FOUNDATION ومعهد لندن للشرق الأوسط LONDON MIDDLE EAST INSTITUTE، إتفاقية تعاون مشتركة بين اليونسكو و MBI FOUNDATION وذلك في مجالات التعليم والثقافة.

تركّز الإتفاقية أوّل إهتماماتها على تطوير وتحديث النظام التعليمي في الشرق الأوسط وما يمكن القيام به لترقية وتشجيع ثقافة السلام والديمقراطية، بجانب مشروع إدخال الحرف العربي في الإنترنت ومشروع «كتاب في جريدة» وقد بدأ تنفيذه بالفعل.

المؤلفات المقرّة 2004 / شباط – 2005 / كانون الثاني*

التاريخ (أول أربعاء من كل شهر)	إسم الكتاب	الكاتب	الرسام
11 شباط / فبراير 2004	الضوء الأزرق	حسين البرغوثي، تقديم: غسان زقطان	حسن الحوراني
3 آذار / مارس 2004	مختارات شعرية، عبدالله البردوني	إعداد وتقديم: عبد العزيز المقالح	سبهان آدم
7 نيسان / أبريل 2004	ليلى المريضة في العراق	زكي مبارك، إعداد وتقديم: محمد مظلوم	سعد يكن
5 أيّار / مايو 2004	مختارات شعرية، عمر أبو ريشة	إعداد وتقديم: حسين راجي	فاتح المدرّس
2 حزيران / يونيو 2004	تجديد الفكر العربي، نصوص مختارة	زكي نجيب محمود، إعداد تقديم: محمد مظلوم	سلوى زيدان
7 تموز / يوليو 2004	الأمير الصغير، أنطوان سانت أكزوبري	ترجمة: يوسف غصوب	نديم الكوفي
4 آب / أغسطس 2004	الوتد	خيري شلبي، تقديم: محمد مظلوم	كريم سيفو
1 أيلول / سبتمبر 2004	مختارات شعرية، سنية صالح	إعداد وتقديم: ممدوح عدوان	نذير اسماعيل
6 تشرين الأول / أكتوبر 2004	ديوان النثر العربي، نصوص مختارة	إعداد وتقديم: أدونيس	أدونيس
3 تشرين الثاني / نوڤمبر 2004	حارث المياه	هدى بركات، تقديم: فيصل دراج	تانباك
	إدوارد سعيد، نصوص مختارة	إعداد وتقديم: د. جابر عصفور	فوتوغراف
	مذكرات أميرة عربية	سلمى بن سعيد بن سلطان	ديما حجار

* المؤلفات المؤشرة باللون الرمادي هي التي صدرت إلى الآن.

هدى بركات

هدى بركات وجمالية الإبداع

ربما، تكون هدى بركات من الأسماء الروائية القليلة التي تولد لامعة، وتولد من جديد، دون أن يصيبها الخلل والاعتلال. فهي روائية "الحرب في لبنان" بامتياز، تعطي تجربتها ولا تكرّر تجربة سبقت، وتضع في التجربة معنى الحرب وأسئلتها المقلقة الحزينة. ولعل هذا القلق المبدع هو الذي يُلزمها بقراءة ما ترى من جهات مختلفة، محوّلة سؤال الحرب الفاجع إلى أسئلة متوالدة، تتأمل إنسان الزمن المعيش وترتد إلى أزمنة منقضية. لكنها وهي تسائل الحرب عن أسبابها القريبة والبعيدة، تسائل الكتابة المعطاة، تنقدها وتختبر إمكانياتها، منتهية إلى كتابة جديدة تأتلف مع تساؤل خصيب، لا يشبه غيره. وهذا البحث المخلص المزدوج، الذي يتأمل ظاهرة فاجعة وسبل كتابتها، هو الذي وضع في روايتها أسئلة إنسانية شاسعة تحتضن الموت والجنون والجمال والاغتراب وعبث التاريخ...

ثلاثة عناصر متضافرة جعلت إسهام هدى بركات الروائي مختلفاً عن غيره: تجربة معيشة يقظة مرهفة الإحساس، تميّز السطح العارض من القاع الثقيل واليومي الخفيف من التاريخ الذي أنتجه، وتميّز أكثر بين الوهم، الذي يطلق حكايات سائبة، والتخييل، الذي يستولد الحكايات من المعنى، ويضيء المعنى بحكايات محسوبة؛ وثقافة عالية تعرف دلالة "الإشكال الروائي" وتوقظ أسئلته الملائمة منتهية إلى "وضوح الخطاب"، الذي يشتق وجع الإنسان من تاريخه الموجع ومنتهية، في اللحظة ذاتها، إلى "التباس الخطاب"، مدركة أن الجواب الروائي سؤال جديد، وأن في أعماق الإنسان المعتمة ما يستعصي على الكتابة؛ يصدر العنصر الثالث عن اجتهاد نزيه، يأخذ بيدها إلى أقاليم معرفية مختلفة، تتضمن: "الإنسان – الخنثى" ومصارع العشاق وسيرة الحرير وتاريخ بيروت المحاصر بالزلازل... هناك بداهة "الموهبة"، تلك الكلمة الصعبة الغامضة، التي تترجم "فضيلة العمل" واستنطاقاً للغة إلى تخومها الأخيرة...

إتكاء على فضيلة العمل، التي توقظ الفضائل جميعاً، كتبت هدى بركات "حجر الضحك"، متوسلة مجازاً رحباً هو: الإنسان الخنثى، السائر إلى الحرب غافياً، والخارج من الحرب دون أن يصحو، كما لو كان فيه عطب جوهري عصيّ على الإصلاح. وما إنسانها العجيب – الذي يذهب إلى الحرب ويعود منها بلا تبدّل – إلا الطبقات التاريخية – الثقافية التي صاغته مشوّهاً، ومنعت عنه الفصل بين الشاذ والسّويّ والجميل والقبيح المكتمل. بعد "حجر الضحك"، التي تحدثت عن حرب تندّد بهشاشة الإنسان والتاريخ، جاءت رواية "أهل الهوى"، تلك الرواية العربية النموذجية، التي تضع "العاشق المخذول" في لغة متألقة عصيّة على المحاكاة والمضارعة. بعد مجاز الإنسان – الخنثى جاءت الروائية بمجاز جديد هو: العشق – الخلاص، الذي ينقض مجتمع الكراهية بغربة العاشقين، الذين يكابدون ويجالدون وينتهون إلى ملاذ مطمئن ينفتح على العدم. فالعاشق الصادق يكتفي بعشقه ولا يتطلع إلى شيء آخر. في "حارث المياه" دخلت بركات إلى تجريب روائي جديد، يواجه القبح بالجمال، والخشن بالدعم، وهشاشة الوجود بنعمة الفن التي تتألق قبل أن تسقط في التداعي والأفول.

أسهمت رواية هدى بركات، وهي تدعو إلى عالم أخلاقي – جمالي بديل، في إثراء الرواية العربية، مبرهِنةً عن جمالية الكتابة المبدعة وأخلاقية الإبداع الطليق، ومبيّنةً، أولاً، أن الإبداع الحقيقي لا يحتمل التذكير والتأنيث.

فيصل دراج

اضطررنا لنشر الجزء الأول من رواية «حارث المياه» لهدى بركات بسبب طول الرواية الذي يتجاوز بشكل كبير عدد الصفحات المسموح بها في "كتاب في جريدة" والمتعارف عليها وهي (٢٣) صفحة تابلوية.
وقد تم الإتفاق مع المؤلفة حول هذه الصيغة لعدم رغبتنا جميعا بحذف مقاطع وأجزاء متفرقة من الرواية.

شوقي عبد الأمير

نتوجه بالشكر إلى دار النهار في بيروت لتعاونها ودعمها لنشر «حارث المياه» في «كتاب في جريدة»

تانياك

ولدت تانيا بكاليان صفي الدين عام ١٩٥٤ في بيروت بعد حصولها على شهادة الليسانس باللغة الإسبانية، دخلت جامعة "جورج تاون" في واشنطن لتحصيل شهادة العلوم السياسية، ولكن حرب عام ١٩٧٣ جعلتها تتخلى عن دراستها في القارة الأميركية. عادت إلى باريس والتحقت بكلية الفنون الجميلة وعملت بمساعدة أستاذ في «محترف لاكولين» ''Atelier la colline'' وعادت إلى بيروت عام ١٩٩١ حيث أقامت عدة معارض.

٢٠٠٤ لبنان، معرض وجهة نظر الفنان، شارع كورك، لندن، إنكلترا.
٢٠٠٤ معرض البحر المتوسط بنظر بيروت - متحف سرسق.
٢٠٠٣ تشرين الأول ''Transparencies''، محترف الزاوية.
٢٠٠٣ أيار "عفواً لست شقراء لكني أحاول"- معرض نساء بريشة نساء- الجامعة اللبنانية الأميركية.
٢٠٠٣ أيار "أرتويل" ''Artuel'' الصالون الدولي للفنون المعاصرة - معرض جماعي.
٢٠٠٢ تشرين الأول "مد لسانك" غاليري أجيال - معرض فردي.
٢٠٠٢ أيار ''Tortue-temps'' غاليري سُهيل داغر - معرض جماعي.
٢٠٠٢ أيار ''Les guerriers'' المركز الثقافي الفرنسي في دمشق - معرض فردي.
٢٠٠٢ أيار مهرجان فنون النساء - حلب - سوريا.
٢٠٠١ كانون الأول "وقائع الفن" ''Facts of art'' قلب بيروت.
٢٠٠١ تشرين الثاني ''Peinture, guerre, considerations''، غاليري سهيل داغر-معرض فردي.
٢٠٠١ تموز "منحوتة" قاعة الإستقبال – فندق مونرو – بيروت.
٢٠٠١ تموز "أرتويل" ''Artuel'' الصالون الدولي للفنون المعاصرة - معرض جماعي.
٢٠٠١ متحف سرسق.
٢٠٠٠ تموز "أرتويل" ''Artuel'' الصالون الدولي للفنون المعاصرة.
١٩٩٩ تشرين الثاني "معرض الفنانين الأرمن: خمسون سنة في لبنان" - لافبركا.
١٩٩٨ متحف سرسق.
١٩٩٧ تركيب حلقة إضاءة وصوت حول صالون الكتاب في بيروت - معرض القراءة بالفرنسية - معرض فردي.

الراعي

محمد بن عيسى الجابر

MBI FOUNDATION

المؤسس

شوقي عبد الأمير

المدير التنفيذي

ندى دلاّل دوغان

الإستشارات الفنية

صالح بركات

غاليري أجيال، بيروت.

المَقَّر

بيروت، لبنان

* **يصدر بالتعاون مع وزارة الثقافة**

تصميم و إخراج

Mind the gap, Beirut

سكرتاريا وطباعة

هناء عيد

المطبعة

بول ناسيميان،

بوميغرافور برج حمود بيروت

الإستشارات القانونية

"القوتلي ومشاركوه ـ محامون"

الإستشارات المالية

ميرنا نعمي

المتابعة والتنسيق

محمد قشمر





كتاب في جريدة

العدد العاشر

التسلسل العام: عدد رقم 75

(3 تشرين االثاني 2004)

ص.ب 1460 ـ بيروت، لبنان

تلفون/فاكس 630 248 (1-961+)

تلفون 219 330 (3-961+)

kitabfj@cyberia.net.lb

حارث المياه

هدى بركات

«هذا وهم... وهمٌ ما ترَيْنه»، قال أبي لأمي التي رفعت كفّها فوق عينيها تتّقي الشمس ناظرةً إلى البعيد. «لا يمكنك رؤية ما تدّعين رؤيته من مثل هذه المسافة، فالبحر كالصحراء له سرابه أيضاً ونحن ما زلنا بعيدين عن اليابسة».

«لكني قلت لأبيك إنها بيروت، وإن المركب الذي كان يحملنا من الاسكندرية إلى اليونان ولازم الشواطئ هرباً من هيجان الموج في عرض البحر هو الآن بمحاذاة رأس بيروت التي أراها فعلاً. كانت أرضاً جميلة من بعيد كالرؤيا... غادرني وحام الحمل وغثيان الإبحار في الأمواج العاتية، وعاودتني للمرّة الأولى منذ أشهر رغبة الغناء. قلت لأبيك وأنا أتّكئ على حديد الدكّة، وأشير بذراعي البيضاء البضّة: أريد أن ننزل هنا... لا أريد الذهاب إلى اليونان... وهكذا كان».

لكني، وخلال سنوات عمري الخمسين لم أصدّق مرّة رواية أمي. وأبي الذي كان يبقى صامتاً، ينظر إليها ويبتسم، كان يخشى من حبّه لها أن يشكّك في ما تقول... كأنها زهرة



جميلة تنقصف حالما تُغضبها... لكنّ رواياتها الكثيرة المتكرّرة، والمختلفة قليلاً في كل حين، كانت تترك لي أن أتصوّر حقيقة ما وراء ما ترويه أمي.

لم أسألها يوماً وهي تمثّل دور الحامل على السفينة، التي كانت تنقلها وأبي وشريك أبي اليوناني إلى سالونيك، كيف كان ضوء الشمس باهراً فيما جعلت العاصفة الهوجاء السفينة تبحر بمحاذاة الشواطئ... قلت في نفسي: ربّما ضربت العاصفة عرض البحر فقط، وبقيت الشمس تسطع على أطرافه. لم أسألها إن كانت اليابسة التي ابتهجت لرؤيتها قبرص أو كريت وليس أرض أجدادها... لم أسألها كيف قادت السفينة بإرادتها ودلالها إلى مرفأ بيروت حيث نزلت مع أبي وواصل شريكه اليوناني سفره إلى اليونان. قلت في نفسي: إن الجميع نزلوا في سالونيك. وتحت إلحاحها فصم أبي شراكته، أخذ حصّته وأبحر ثانية مع أمي إلى بيروت حيث ولدتُ ونشأت في حيّ أبو جميل حتى السنة الثالثة من عمر الحرب. هناك ازدهرت تجارة أبي في بيع القماش حتى مات بعد أن سلّمني محلّه الكبير الشهير في سوق الطويلة حيث أعيش الآن.

كانت حياتي مع أمي صعبة دوماً وليس فقد بعد موت أبي. لقد خيّبتُ أملها فيّ تكراراً منذ ولادتي صبيّاً، وهي التي كانت تأمل بنتاً لتأخذ من جمالها وتشهد له. وأمي بقيت حتى بلوغي تعلّمني الغناء الأوبرالي الذي ظلّت طيلة حياتها تتجهّز له، وتروي عن ماضيها فيه. ولم تبدُ عليها الخيبة - على ما أخمّن - حين لم تجد في بيروت داراً للأوبرا كما كان تهيّأ لها - لا بدّ - وهي بعد في القاهرة. كانت كلّما ذهبت إلى أستاذ تعليم الغناء الأرمني الذي كان يقيم مدرسة قرب اللعازارية تعود إلى البيت فرحانة لتؤكّد لنا أن العرض بات قريباً، وأن الأستاذ كيفورك قد أوكل إليها دور البطولة... لم يكن أبي يعارضها في شيء... حتى ملح الطعام كان يضيفه إلى صحنه سرّاً حين كانت تقول إن الأكل شهي لا يلزمه شيء رغم أنها لم تدخل المطبخ يوماً لإعداد الطعام بيدها... كان أبي كذلك يضيف الملح إلى صحنه حين كانت تضيفه إلى صحنها متشكّية وناظرة إليه... كان أبي يقول لي خلسة عنها، وفي عينيه شيء من الشقاء: «هناك نساء من حرير... أمّك من حرير... ستفهم حين تكبر...»

لم يعارضها حين قرّرت الإقامة في بيروت رغم كلّ ما كان سمعه من أبيه البيروتي أيضاً، الذي حدّثه طويلاً وقرأ له كثيراً عن تلك المدينة... وكان يُنهي جلساته ناصحاً ابنه بألاّ يقع في غوايتها، ويعتبرها يوماً مآله لأنها كانت ذات يوم أرض أجداده. لم يعارض أبي أمي في شيء حتى حين كانت تُلبسني ثياب البنات رغماً عني، وتعلّمني الغناء الأوبرالي في البيت، وتصطحبني إلى مدرسة المعلّم كيفورك ذي الشارب الدوغلاس النحيل حيث كانت توصيني، قبل أن تتركني في الزاوية المعتمة لتقف قرب البيانو حيث يجلس الأستاذ كيفورك، بأن أستمع جيداً وأفتح أذنيّ... وقبل أن يغلبني النعاس على تكرار الجمل الرفيعة الصدى، أروح أرسم من ذهني وسط أمي الأعلى الغارق في العتمة وفمها الجميل المفتوح - إذ لم يكن ضوء الأباجور يضيء سوى نصفها الأسفل - وشارب الأستاذ كيفورك المنكبّ على العزف.

خاب أملها فيّ لأني لم أحسن الغناء صغيراً، بل إنّ صوتي راح يثخن ويضطرب حتى ضاع مني السوبرانو وأنا لم أبلغ بعد الثانية عشرة... كذلك، وفي الوقت نفسه، تأكّدتْ تماماً أني لن أفلح في الدراسة، ولن أكون أفضل حالاً من أبي تاجر القماش... كأنها استسلمت لخيبتها تلك حين صار أبي يصطحبني معه إلى محلّه حيث أقضي أيام العطل بكاملها، وصارت تشيح بوجهها يائسةً حين يعدها بأن يشرف على إتمامي دروسي وفروضي في المحل في الأيام التي نقضي نصفها فقط في المدرسة كيومي الأربعاء والجمعة... يأخذني معه بعد الغداء... يتأبّط شنطتي الجلدية ويشير لأمي أن تنصرف لتمارينها الغنائية، لا يعكّر عليها وجودي في البيت. وحين كنّا نتأخّر في المحل، وقبل أن يوصي أبي صبيّه الأكبر بالإغلاق ويودّع صحبه، كان يسرّ إليّ قائلاً: «يا عيب الشوم أمك جاعت ونحن لم ننتبه للوقت...» كنت أعلم حينها أني سأغمر باقة من الزهور ثقيلة تنغرز أشواكها في يدي أو تمنع أوراقها الكبيرة عينيّ من الفرجة على أضواء المدينة ونحن عائدان، بعد أن يعرّج أبي على سوق الافرنج ليشتري الفواكه الجميلة، أو يتوقّف في باب ادريس عند صديقه الرفاعي بائع النقولات الساخنة ثم نسرع نزولاً في شارع أحمد الداعوق فشارع بيتنا. وإذا لم نسمع من على الدرج عنين غراموفون أمي تهيّأ أبي لاعتذار طويل، أو نقر خفيفاً على زجاج بيت جارتنا ساره الثرثارة وطلب منها - إن كانت وحيدة في البيت - أن تصعد لقضاء السهرة عندنا... فتفهم ساره وتهزّ رأسها متآمرة معه... فثرثرتها الشقية ستُنسي أمي زعلها، ويفوت الليل على خير. لكنّ كل هذا لم يكن ينفع حين كان حديث أبي ورفاقه التجار يخوض غمار السياسة أو يستغرق في عالم القماش... كان علينا إذ ذاك أن نميل يساراً عند خروجنا من شارع سوق الطويلة، نسير قليلاً في شارع فيغان، ونتوقف عند محلاّت الدمشقية حيث يحتار أبي في ما عساه ينتقي لأمي من فواكه في غير موسمها يدفع ثمنها غالياً جداً كهؤلاء الرجال الخجولين الذين يطلبون لنسائهم الحوامل المدلّلات عنباً في شباط أو بطيخاً أحمر...

لذا بعدما توفي أبي كان من الصعب جداً عليّ أن أرضي أمي. ليس فقط لأني لم أنهِ علومي على نحو ما كانت تحلم، كأنْ أصبح طبيباً أو عالم موسيقى أو ما شابه، بل لأني، وأنا بائع القماش، لن أكون كأبي. لن تكون لي مزاياه وصفاته الكثيرة... وهي محقّة في ذلك إلى حدّ كبير. فحين بدأتُ مزاولة عملي إلى جانبه في المحل، لم أكن أتصوّر نفسي وحيداً وراء الدكّة من دونه. كنت أرانا معاً نحن الاثنين مالكاً واحداً؛ للمحل لكن أمي التي كانت تراني وريثاً في المستقبل لم تكن تقنعها صفاتي القليلة حتى كمجرّد صبي لأبي الذي لن يعيش لي إلى نهاية عمري.

كنت أجهد نفسي منذ صغري كي أدرك كيف يفهم أبي أمي. وبات ذلك أصعب بكثير بعد موته. إذ فقدتُ أنا المثال، وفقدتْ هي رغبتها القليلة في التعبير والإشارة.

مع ذلك غالباً ما كانت تكرّر: «لا يريد أن يرى... لا يريد أن يرى إلاّ ما يريد...» كانت تردّد ذلك وكأنها تتكلّم إلى أختها، وكأنّ الأخيرة ما زالت معنا في البيت ولم تغادر منذ زمن. فصوت أمي خفيض دوماً، رتيب النبرة، متّسق الدفقات ولا يزاوج انفعالاتها فيعلو في غضب أو يرقّ في بوح... ما كان صوتها يخرج يوماً ليبتعد عن فضاء وجهها، فيجتاز الشبابيك كما أصوات الأمهات التي كانت تتناهى إلى سمعي... والذي لا ينظر إلى وجه أمي لا يسمعها حين تتكلّم، وإن سمعها لن يفهم ما تقول إن لم يكن ناظراً في وجهها.

لا بدّ معها حق... لا يريد أن يرى إلاّ ما يريد... كانت تناديني حين كنت صغيراً فأسمع ولا ألتفت إلى وجهها، بل أحدّق باتجاهه في غرض آخر منصتاً إلى صوتها. قالت لها أختها مراراً إنها عادة الخجولين، لا ينظرون في عيون من يحادثهم. «لا، إنها عادة العميان»، كانت أمي تجيب...

كان صوت أمي خفيضاً وهادئاً ومتجانساً دوماً... وبعد موت أبي غيّرتُ عادتي. صرتُ أحاول أن أقلّده، وأن أنظر إليها، وأرقب وجهها ملياً لأفهم ما تريد وما ترغب به إذ لم يكن لها غيري الآن وقد أصبحتْ عجوزاً. وحيال تقنينها المتمادي في إطلاق صوتها صرت أقنع نفسي بأن السبب هو حرصها عليه، لا رغبتها الشريرة في الامتناع عن محادثها وتكبيده صعوبات فهم ما تريد. إذ بقيتْ أمي حتى سنوات عمرها الأخيرة تقول إن صوتها هو أجمل ما عرفت أصوات النساء... وبقيتْ تعدّه للغناء وتعدّ نفسها للحفل الأوّل... وحين بدأت تبالغ في ذلك الإعداد وتروي لذلك الروايات المختلفة، وهي تعيد رسم وجهها بالمساحيق، انتابني عليها قلق عميق، وقلت في نفسي إن أمي بدأت تعاني من خرف العجز... لكني سرعان ما رحت أستمع إلى رواياتها بشكل مختلف متسائلاً ومشكّكاً: على أي حال منذ متى كانت أمي كائناً واقعياً؟ مَن قال إنها في صباها كانت تروي الحقائق؟ مَن قال إن رواياتها المتباينة وهي عجوز الآن ليست في معظمها حقيقية وحدثت بالفعل؟ كانت تعيد رسم وجهها بالمساحيق وبأدوات التجميل حين محى العمر ملامحها ولم تطق ذلك... أعود من المحل في المساء لأجدها جالسة في كنبتها، وقد بدأت حكايتها قبل وصولي... أغسل يديّ وأحضر صينية العشاء التي تكون هيّأتها لي شمسة إلى غرفة أمي، وأجلس قبالتها أحدّق في شعرها الأحمر وحاجبيها الرفيعين المخطوطين بالقلم الأسود كقنطرتين وأستمع:

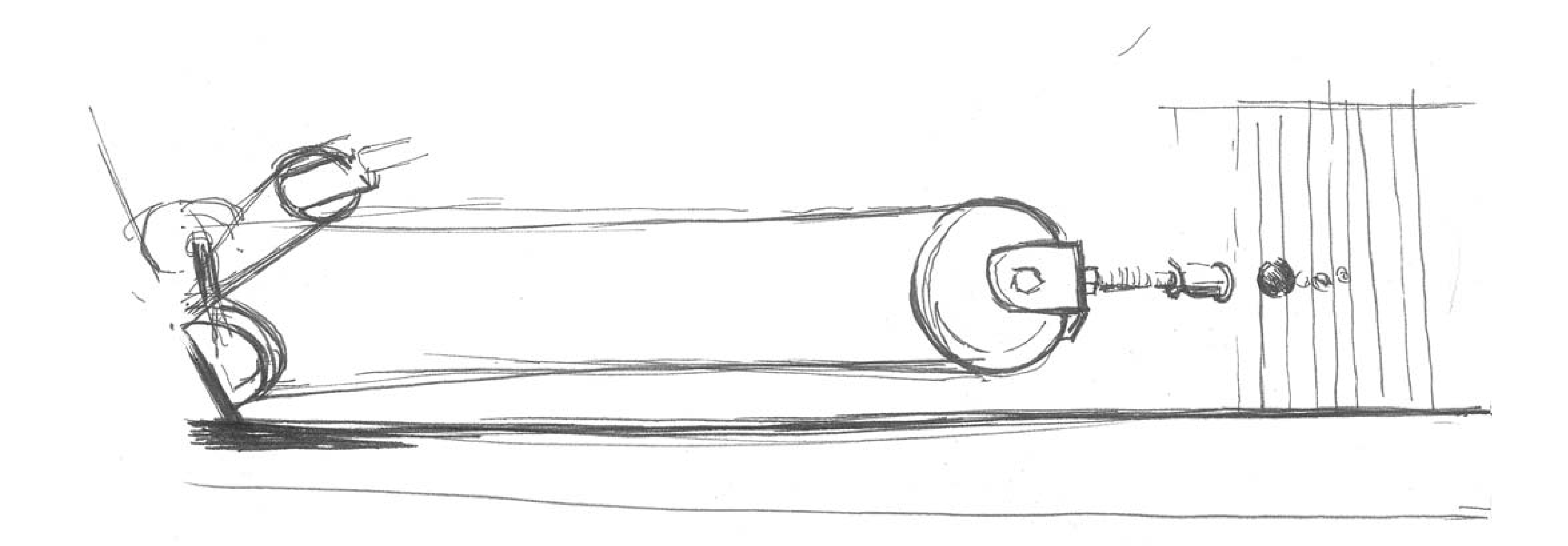
«كنت أغنّي في عيد ميلاد الملك بعد أن رجتني نازلي طويلاً. هناك رآني جدّك وأغرم بي... جدّك الذي نكاية به وبالقماش حملتُ ابنه إلى بيروت. كان مغرماً بي ويكرهني. يخاف مني ومن صوتي. يخاف أن أصبح فنانة شهيرة لشدّة ما أنا جميلة وصوتي جميل... عَمِلَ المستحيل حتى لا أعود إلى الغناء أمام الملك وقال لابنه إني إن عدت إلى القصر فإن فاروق سيضمّني إلى حريمه وأجلب العار عليه إن هو تزوجني بعد ذلك... استعجل مع أبي زواجي بعد أن عارضه طويلاً...» وإذاك كانت أمي تستعيد لهجتها المصرية كاملةً - «حملتُ أباك إلى بيروت نكاية بأبيه لأنه كان يكرهها. لكني لم أستطع إبعاده عن القماش كما كنت أحلم... حتى قبل سفرنا بأيام بقي جدك يردّد أن اليونان بلد عظيم، ويحذّر أباك من الإقامة في بيروت على ما كان يخمّن في نفسه من رغبتي... هذه المدينة قادمة على زلزال على نحو ما قال لي الأستاذ الانكليزي من جامعة ليدز. كان جدك يقول، مصطنعاً الموضوعية العلمية، إنها تقع على صدع ينزلق خمسة ميلمترات سنوياً، وهي حركة تعتبر كبيرة في علم الجيولوجيا. لقد جعلت الزلازل عاليها واطيها - كان يقول - محتها عن الأرض مرتين والثالثة قريبة لا ريب. حان وقت القلبة الثالثة كان يقول، هذا عدا عن دمار الحروب...»

- «هذه المدينة ليست بلاداً لأحد،» كان أبي يقول نقلاً عن جدي حين يكون غاضباً... وغالباً ما كان أبي يغضب في سنوات عمره الأخيرة... كان مبتئساً ممّا كان يسمّيه عصر الديولين... وعصر الديولين، كما كان يقول، كان يترك له ولي الوقت الطويل للكلام بعد انحسار حركة البيع إلى حدّ اكتفينا معه بالاحتفاظ بصبيّ واحد.

كان ينظر إليّ وفي عينيه مسحة من الحزن أو الشفقة ثم يقول إن أباه ربما كان على حق.

في سنوات عمره الأخيرة كان يسترجع كلام أبيه لساعاتٍ طويلة... كأنه كان يريد أن يُحضر أباه إلى حديثنا، أن يُحضر جدي لحفيده في زمن بات بخيلاً بحيث يضطر الواحد إلى استرجاع ثراء الماضي... كأنّ أبي كان يريد أن يحفزّني لأنسى ما حولي من بؤس حاضر القماش بإعادتي إلى غِنى أبيه الغائب. غِنى ما كان يحيط به، وغِنى كلامه الذهبي كما كان يحلو لأبي القول حين يغمره الحنين.

لكني الآن في سعادة وهناء لم يذهب إليهما خيال أبي وأمي في حياتهما، إذ كيف كان لهما أن يتخيّلا ما حلّ في حياتي وفي حياة المدينة ممّا لم يكن يتصوّره الآدمي. فأنا الآن أعيش في ما تمنّيته لنفسي دائماً، لا شيء يشوّش عليّ ما أنا فيه... كأنّ كلّ أشواقنا، جدي وأبي وأنا، وربما أيضاً أمي، تجسّدت في عيشتي الحالية. فلا يحنّ إلى الماضي إلا من خذله حاضره كأبي... إلاّ أني أجد نفسي أحياناً أنزلق إلى حنينه هو لماضيه، إذ طالما رأيته شقيقاً توأماً لي أكثر منه أباً... ولأني مثل أمي أجد له من الصفات ما لم أكن أجده في نفسي، خاصة بعد أن مات وفقدتُ الأمل في أن أتعلّم وأكتسي حسناته على يده. وبعد أن أعطتني الحياة الحالية متسعاً من الوقت والراحة لأستعيد دروسي التي تعلّمتها منه، والتي حلّت في رأسي محلّ الدروس التي تعلّمتها في المدرسة، ولم يبقَ منها الشيء الكثير.



أنا الآن أرى ما أريد فعلاً، لم تغدر بي المدينة كما كان يخشى جدي الذي سمّاني أبي على اسمه رغم أن أمي بقيت تناديني داوود مشيرةً إلى عنادي ومختصرةً تكرارها القديم: على من تقرأ مزاميرك...

«أسرع يا حاج نقولا»، قال لي عبد الكريم ابن أبو عبد الكريم الذي لا يبعد محلّه عن محلّنا سوى بضعة أمتار. جلست إلى جانبه في سيارته «الهوندا» وسارت تتبعنا شاحنة «السكس ويل» التي استأجرناها مناصفة. لم تستطع الشاحنة الولوج في السوق من جهة شارع «ويغان»، ليس فقط لضيق الشارع على حجم صندوق الشاحنة الكبير بل لأنّ الشارع كان مليئاً بسيارات التجار والشاحنات الصغيرة وبعشرات الأشخاص يسرعون في كلّ اتجاه مطلقين الصياح ومحدثين الجلبة بحيث لم يكن أحد يسمع أحداً. أشار عبد الكريم على سائق الشاحنة أن يدلف من شارع الحويّك إلى شارع طرابلس ويحاول دخول السوق من هناك قدر ما يستطيع إذ تقع محلاّتنا ـ على أي حال ـ في نصف السوق الأقرب إلى جهة البحر.

قبل أن نصل إلى محلاّتنا قلت لعبد الكريم إن الناس مجانين، فالجو رائق ولا لزوم لهذه الهستيريا. «أسكت يا حاج»، قال عبد الكريم... «ربك يستر ونجد شيئاً نرجع به يغطّي تكلفة إيجار الشاحنة».

أوقف عبد الكريم سيارته «الهوندا» عند زاوية شارع خان فخري بك لشدة الازدحام. قال لي وحمّالو الشاحنة يتبعوننا سيراً على الأقدام: «ننتهي أولاً من محلّنا لأنه الأقرب إلى الشاحنة». وافقتُ، وأنا أسرع الخطى وراءه. كنا ما زلنا على بعد أمتار من محل أبو عبد الكريم حين بدأنا نسمع أصوات انفجارات قريبة. تابع عبد الكريم سيره غير آبه، ثم تسمّر مكانه أمام مدخل المحلّ. كان بابه الحديدي الجرار منفوخاً كالكرة وممزّقاً تماماً. قال عبد الكريم: «الحمدلله لم يقع ما كنت أخشاه: الحريق».

داخل المحلّ لم يأبه عبد الكريم لكمية البضاعة المتضرّرة، الممزّقة على بكراتها والمكوّم أكثرها على الأرض وعلى الدكّة الخشبية. خرج من المحل يبحث عن الحمّالين فلم يجد أحداً...

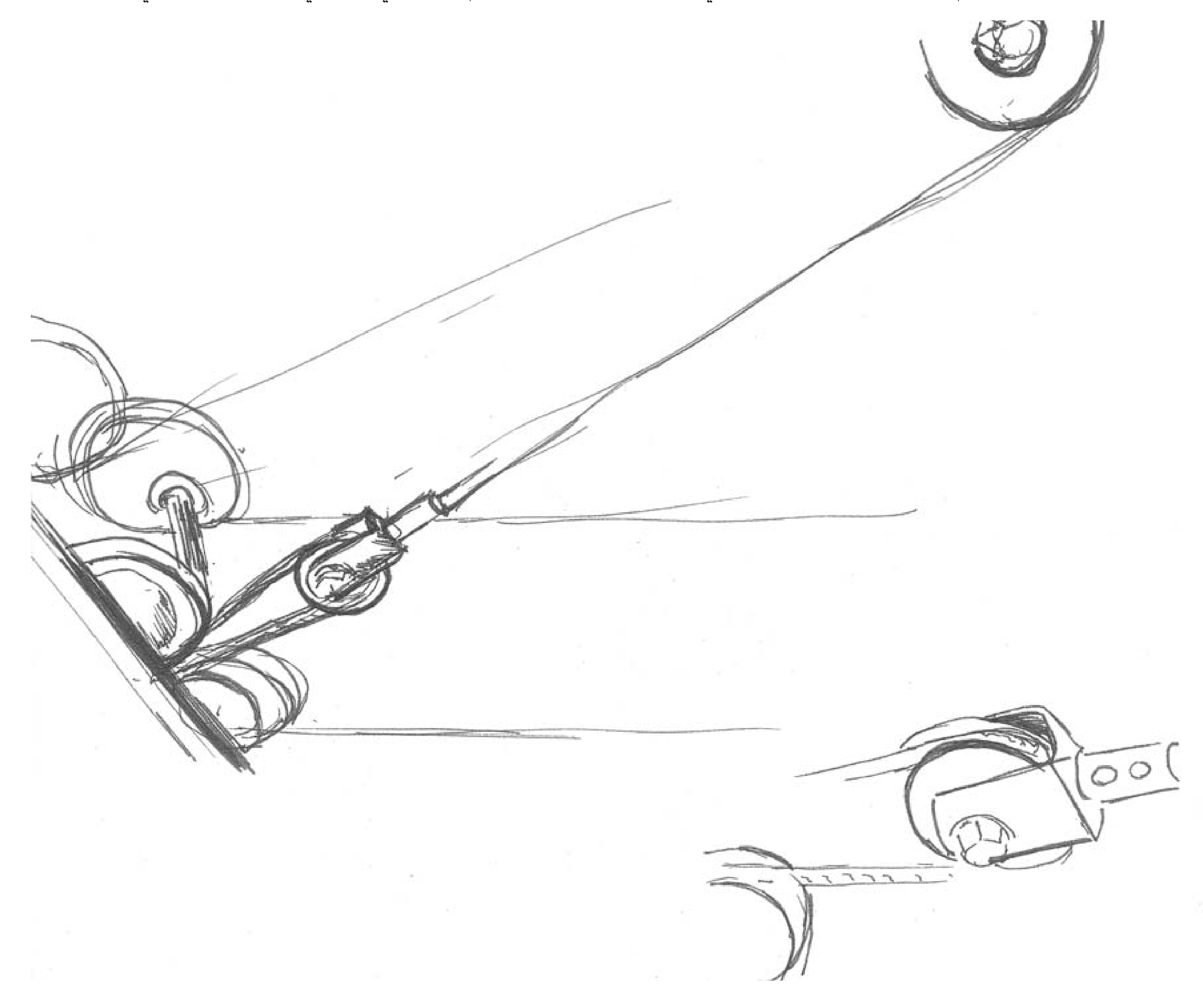
ونحن في سيارته ودواليبها تنهب الأرض نهباً كان لا يكفّ عن كيل الشتائم للأكراد ومن لفّ لفّهم، وهو يعني الحمّالين وسائق الشاحنة الذين اختفوا بلمح البصر دون إخطارنا بعد أن اشتدّ القصف، وبعد أن قبضوا الأموال سلفاً متذرّعين بالظروف لإملاء شروطهم. قال لي عبد الكريم ونحن في البيت نشرب القهوة إن بضاعة الأسواق المنهوبة تنزلها الآن الشاحنات في الجمّيزة والأشرفية. ينهبون ثم يقصفون لمنعنا من إنقاذ بضاعتنا. كلّ ذلك محسوب، هذه حرب للنهب، ليست حرب رجال، كان يقول عبد الكريم غاضباً، هذه مؤامرة، مخطّط جهنمي. ستجد كلّ محالّهم فارغة ومحالّنا محروقة منهوبة. أنت تعرفني يا حاج نقولا وأبوك يعرف أبي، هل نحن متعصّبون... هل لمستم منا تعصّباً كالذي يُظهره هؤلاء الناس؟

لم يكن عبد الكريم يجد حرجاً في كلامه عن الموارنة إذ كان يعرف أننا نحن أيضاً ـ الروم الأرثوذكس ـ لا نحبّهم كثيراً، وأن لا دخل لنا في ما يجري الآن مع من يسمّيهم «جلباً» على أهل بيروت. وهو يعتقد أنه مرّ ببالي أن أتقدّم لطلب يد ابنة خاله محيي الدين لشدّة ما تلعثمتُ بالكلام حين مرّتْ يوماً بمحلّهم مع رفيقة لها وكنتُ هناك. كنت رأيتها قبل ذلك في محلّنا حين رافقها عبد الكريم ليريا إن كان تبقّى لدينا من أطلز الملاحف اللونُ الزهري الذي كانت تطلبه. ذلك الأطلز الذي تردّد أبي طويلاً قبل أن يقبل بوضعه على رصيف محلنا، والذي كان يدعوه قماش المنجّدين ولا يسارع إلى إدخاله المحلّ حين تمطر. إنه الأطلز، كان يقول لا الأطلس، فانتبه يا نقولا.

لم يشكّ عبد الكريم أن سبب تلعثمي حين رأيتها في المرة الثانية هو عبوس أبيه ولهجته الناشفة المفاجئة، والتي كان الغرض منها إفهامي بأنها أبعد عن منالي من نجوم السماء.

ماذا سأقول لأبي الحاج الآن، كان عبد الكريم يكرّر آسفاً وهو يصافحني مودّعاً على باب بيتنا. سوف نعود مرة أخرى قريباً، حين تهدأ الأوضاع يا عبد الكريم... فأنا لم أرَ محلّنا حتّى من بعيد، قلت له.

صحيح أني لم أرَ محلّنا حتّى من بعيد، لكني لم أكن متوتراً حزيناً كعبد الكريم، وكان ذلك يبعث فيّ الخجل من نفسي. حتى بعد أن اشتدّ وطيس المعارك في وسط البلد، واجتمعتُ مع كبار تجار السوق في بيت أحدهم في المصيطبة حيث أكّد الجميع للجميع أن ما لم يحترق قد نُهب وسُرق... انتهى الاجتماع بتشكيل لجنة من التجار لم أعد للاجتماع بهم أبداً. كنت أسائل نفسي عن سبب برود قلبي... أعرف أني في شكل ما من الأشكال، ولأني لم أرَ بأمّ عيني، ما زلت آمل أن يكون المحلّ سالماً... لكن الحقيقة كانت غير ذلك. كانت في طبعي الغريب وفي ما أدهشني من نفسي وعرفته حين مات أبي.



فحين قال لي الطبيب بعد أن أغلق باب الغرفة وراءه إن أبي قد أسلم الروح لم ينفطر قلبي من الحزن كما كنت أتوقّع وأتخيّل تكراراً وأنا قرب سريره وهو مريض، أو في غرفتي أبكي من حرقتي على موت أبي القريب. حتى أني خطر لي أن أسأل الطبيب: هل حقاً مات جرجس متري؟ كأني صرت اثنين، واحد يحثّ الآخر على إبداء الحزن ولو مصطنعاً أمام الناس وأمام أمّي، والآخر فارغاً متعطلاً فاقداً كلّ شعور... كأنّ أبي أيضاً صار اثنين: واحد هو أبي والآخر جرجس متري الذي مات للتوّ. احترقتْ دمعته، كان يقول بعض الناس مفسّرين عدم بكائي وانهمار دموعي.

لكن حين توفيت أمي كان الأمر غير ذلك. أخذتها لوحدي في سيارة الجمعية إلى مقبرة مار متر. لم يكن هناك سوى الخوري والقندلفت وبعض أعضاء الجمعية الذين لا أعرفهم. لم أكن محرجاً لعدم إبداء حزني... وحين رفضتُ البقاء والمبيت لدى أحدهم حثّني الخوري على الإسراع في العودة إلى بيتي بمعيّة سائق سيارة الموتى التي لا تعترضها الحواجز المنتشرة على الطرقات بين الأشرفية والستاركو.

هكذا يحصل لي أحياناً فأسير بمحاذاة نفسي وكأني أتفرّج عليها، ولا أشعر بحقيقة ما أعيشه إلاّ بعد مضي الوقت الطويل. أول مرة خطر لي فيها الذهاب لتفقّد المحلّ كانت خلال إقامتي لأكثر من شهرين في طلعة غراهام عند حنون الذي أصرّ على مكوثي معه في بيته إصراراً لم أستطع الفكاك منه. كان ذلك بعد مضيّ أكثر من سنتين على نزولي السوق مع عبد الكريم. جاء حنون بعد ظهر يوم أحد كما كان يفعل دائماً. شرب القهوة، وأخرج من كيسه صنّارتيه الحمراوين، وبدأ يشتغل الصوف ويثرثر كأنّ البلد ليست في حرب، أو كأنّه لم ينقطع عن زيارتنا منذ أسمعَهُ أبي بصريح العبارة أن وجوده في بيتنا غير مرغوب فيه. ولم يكن السبب ثرثرته وشغله الصوف بأصابعه الطويلة المزدانة بخواتم الذهب وقرف أبي من التصاقه بأمي وانصرافه إليها وحركاته الممسوحة كحركات النساء المدلّلات ممثلات السينما... بل كان السبب اشتغال أختيْ حنون في الكباريهات كل ليلة باسم مستعار وباروكة شقراء. وحين قال له أبي يوماً إنه ليس رجلاً أجابه حنون منرفزاً: أنت عقليتك قديمة وما زلت ممن يحسبون الفن عيباً. فنّ يفنّك، أجابه أبي، أتعتقد أن الناس لا تعرف أن زهور ودلال هما أختاك عفيفة ولطيفة. كلّ الناس تعرف أنهما رقّاصتان في كباريه على الزيتونة. مغنّيتان، أجاب حنون وهو يتلقّف جاط الكستناء المشوية الذي ضربه به أبي. وأضاف حنون متباكياً: والله مغنيتان اسأل الطانط فهي تعرف، مشيراً إلى أمي، فهي سمعت صوت زهور الجميل، الله يحفظها لي.

أما تتمّة شكوى حنون فلم تسمعها سوى درجات السلّم التي كان ينزلها مسرعاً وهو يقسم أغلظ القسم بصوته الرفيع بأنه لن يعود إلى ذلك البيت ما عاش، رغم حبه الكبير لي ولأمي... وحتى يدرك أبي من نفسه مدى خطئه وظلمه.

حتى بعد وفاة أبي لم يعد حنون إلى زيارتنا. لذا فوجئتُ كثيراً حين دقّ بابي بعد ظهر ذلك الأحد قائلاً إنه جاء مدفوعاً بقلقه الكبير وبشوقه للاطمئنان علينا وسماع أخبارنا. بكى عندما علم أن أمي ماتت وقال لي إن أختَيْه سافرتا إلى الإسكندرية منذ بدء الحوادث، وهو بقي هنا يحرس البيت وسوف يلحق بهما. وبعد أن جال في جميع غرف البيت مردّداً أنه عالٍ ومكشوف وغير بعيد عن القصف والمعارك في وسط البلد، راح يبحث عن مكان وضع الحقائب ليستلّ واحدة ويدعوني لجمع أغراضي لأنه بالتأكيد لن يتركني في البيت وحدي وهو وحيد في بيته الآمن في طلعة غراهام. حمل الحقيبة وأوصاني بإحكام إغلاق قنينة الغاز قبل أن يسبقني مهرولاً على الدرج.

في بيته، وهو جالس قبالتي يكلّمني بالسياسة انتهبتُ كم أن حنون كبر بالعمر وكم أنه اشتدّ نحولاً. ما كان من عادته أبداً التكلّم بالسياسة... كان يتابع حركات يديه المعتادة وكأنه ما زال يكلّم أمّي في أحاديث النسوان ـ كما كان أبي يقول ـ ولإعلان دهشته بقي يضرب باطن كفّيه بفخذيه وينتع رأسه إلى اليمين مغرّباً بعينيه... راح طيلة المدّة التي مكثتها عنده يشرح لي كيف ولماذا قرّر أن يكون شيوعياً معتبراً أنه تأخّر في ذلك عن أختيه اللتين فهمتا من زمان أن على الروم الأرثوذكس جميعاً أن يكونوا شيوعيين لأن روسيا أمّنا شيوعيّة. أتعرف هاتين البنتين اللتين كان أبوك يسخر من فنّهما؟ كانتا شيوعيتين بحق وحقيق وليس مثلي، أكلّمك الآن وأنا جالس مرتاح في كنبة. لم أقل لأبيك ذلك لأنه كان يكره الشيوعيين أكثر من كرهه للفن والفنانين. سألتُ حنونا لماذا لا يذهب إلى مركز الشيوعيين ويدافع مثلهم عن قناعاته ويقاتل معهم، فأجابني بأنه الآن كهل لا ينفع لشيء وبأنه يحتفظ بأفكاره لنفسه بانتظار أن يلحق بأختيه إلى الإسكندرية.

ضقت ذرعاً به وهو يردّد: أمنا روسيا الشيوعيّة هي المنقذ من اقتتالنا الطائفي إسلاماً ومسيحيين. أكبر غلطة ارتكبها الفرنسيون إذ قرروا أن يكون رئيس هذه البلاد مارونياً. أكبر غلطة... لو أعطوا الرئاسة للروم لما حدث ما تراه الآن. اللاتين لا يفهمون هذه الشعوب. أكبر غلطة.

وذات صباح لململتُ أغراضي، حملتُ شنطتي ووقفتُ في باب المطبخ أودّعه. رأيتُ في عينيه هلعاً حقيقياً. لماذا، سألني وهو يمسك بالركوة بعيداً عن النار. بفانيلته البيضاء وشعره المنبوش كان منظره يدعو إلى الشفقة. سأطلّ على البيت قلت له. قال حسناً، أترك أغراضك هنا إذن. إذهبْ وعدْ ساعة تريد. لم يطاوعني قلبي. تركتُ الشنطة عند المدخل وقبل أن أغلق الباب ورائي سمعته يقول بمرح: سأحشو كوسى وقرعاً لهذا المساء.

أنزلتني سيارة السرفيس عند الستاركو. اشتريت جبناً أبيض وقشقواناً وخياراً وبندورة وبيضاً وبعض الخبز، ورحت أتسلّق الدرج وأنا أفكّر بحنون وأتساءل إن كان سيعود لزيارتي في بيتي أو يتركني في حال سبيلي، وخمّنت أنه سوف يتذرّع بالشنطة وبحجّة إعادتها إليّ والسؤال عن سبب اختفائي المفاجئ، سيرجع للالتصاق بي هرباً من وحشته وخوفه من البقاء وحيداً في بيته...

لم أدرك ما أصاب باب البيت قبل أن أصوّب المفتاح إلى القفل لأجد فراغاً في خشب المكان مكان القفل. تراجعتُ قليلاً فإذا بالباب مخلوع تماماً ودرفته الثابتة تلوح دون مزلاج. دفعتها ودخلت لأجد الصالون فارغاً. للحظة اعتقدتُ أني أخطأت الطابق وهممتُ بالخروج سريعاً إلى سفرة الدرج حين انتهبتُ إلى وجود امرأة تحمل طفلاً قبالتي، وإلى يد جارنا أبو عدنان يمسك ذراعي ويقودني بدون كلام إلى شقّته في الطابق الثالث.

وأنا أستند إلى حائط مدرسة الأليانس رحت أستعيد في رأسي ما قاله لي أبو عدنان وما أورده من أسباب تعني في مجملها أن بيتي لم يعد بيتي في الوقت الراهن وأن ساكني البيت ليسوا هم من نهب أغراضه، وأنه ما كان يجدر بي أن أتركه هكذا دون توكيل أحد بحمايته، وأنه لم يتبقّ لي الآن سوى الذهاب لرؤية الشباب على حاجز شارع فرنسا لجهة الكبوشيّة وهم ينصحونني.

مرة أخرى فوجئت بفراغي وبعصيان ردّ الفعل عليّ. قلتُ لنفسي إني كالعادة يلزمني الوقت للاستيعاب.

بقيتُ ساعات هكذا. واقفاً في وسط الشارع، مستنداً إلى حائط الأليانس ثم قرّرت أن أمشي. تردّدت بإلقاء كيس مشترياتي من يدي ثم وجدتني أفتحه، أتناول خيارة أقضمها ثم أسير ملوّحاً بالكيس كمن يتنزّه على الكورنيش يوم عطلة جميلاً.

تذكّرتُ أني تركت نقوداً في البيت. طارت لا بدّ. قلت باستطاعتي أن أذهب إلى حنون في بيته لكن الفكرة لم تعجبني مطلقاً. قلت سأسير على قدميّ في هذا الطقس المشمس اللطيف إلى الورديّة وأعرّج على البنك لأسحب بعض المال. طال انتظاري في البنك، فموظّفو هذا الفرع لا يعرفونني كموظّفي الفرع الذي كان قرب بيتي في باب ادريس وأقفل بفعل الأحداث. نصحني الموظّف أن أعود في اليوم التالي باكراً ليستطيع الاهتمام بي وينقل حسابي بالليرة اللبنانية إلى حساب بالدولار وإلا فإن كلّ ما أملك سوف لن يكفيني، بعد وقت قليل، لشراء بدلة مرتّبة، على حدّ قول موظف البنك. شكرتُهُ ووضعتُ الليرات في جيبي، خارجاً، رحت أنظر في ضوء النهار إلى بدلتي متسائلاً حول قصد الموظف ببدلة مرتّبة. خمّنت أن بدلتي ليست على الموضة. صحيح أنها قديمة إلا أن مرتّب الموظّف الشهري كاملاً لا يساوي تكلفة جوخها لوحده دون تكلفة الخياطة... إنه جيل تيوفيل خوري... تشتري بدلة بربع ليرة وتربح بدلتين!

وجدتُ نفسي، والوضع هادئ والجوّ رائق، أتمشّى عائداً باتجاه وادي أبو جميل. قلت لا... ما الذي يعيدني إلى ذلك الشارع. استدرت باتجاه شارع فرنسا ورحت أمشي في زواريب صغيرة على شكل متاهة حقيقية كلّما توغّلت فيها بدا ساكنوها أكثر فقراً. عرفت أني تائه عندما صارت الأزقة خالية من البشر محروقة المباني، لكني كنت متأكداً أني غير بعيد عن الستاركو وأن شارع وادي أبو جميل بات ورائي. ثم وجدت نفسي أمام جدار من البراميل الكبيرة المشقوعة فوق بعضها وقد نبت العشب على أسطحها.

بدل أن أستدير عائداً حشرت نفسي بين الجدار الأخير وأسفل البرميل ثم نفدت إلى الجهة الأخرى فوجدت تلّة عالية من التراب. سمعت صياحاً وإطلاق نار من ورائي فجمدت في مكاني. بعد قليل استدرت، أخوض في أعشاب ونباتات، والتففت حول التلة الترابية ومشيت قليلاً بين الحجارة. وجدت نفسي في خلاء واسع وفي صمت عرفت منه أني بتّ في وسط البلد. لا أدري ما الذي دفعني لأن أجدّ المسير. ربما عدم سماعي انفجارات أو دويّ مدافع أو حتى رصاصاً. مشيت وقتاً طويلاً لأني لم أتعرّف إلى المعالم من حولي فتهت.

هكذا وجدتُ نفسي، وبعد حوالى الساعة من البحث، أمام محلّنا والشمس شارفت على المغيب.

أعيش الآن كما أحببت دائماً، محاطاً بكلّ ما رغبت منذ طفولتي أن أُحاط به. أرى ما أريد وألمس ما حلمت دوماً بلمسه وسماع حفيفه، واستنشاق رائحته، روائحه، وامتلاء عينيّ بضوئه وظلّه.

فيوم وصلت، منذ أشهر خلت، إلى محلّنا، وجدتُ محتوياته كوماً صغيرة من الرماد لم أتبيّنها جيداً إذ كان الليل قد بدأ يسدل ستائر العتمة، وجدران المحل السوداء بفعل الحريق ضاعفت من صعوبة الرؤية في الداخل.

خرجتُ ثانية إلى الشارع وجلست قبالة المحلّ على حجر دحرجته بقدمي من وسط الطريق إلى الحائط المواجه. رحت أهزّ رأسي أسفاً على الرزق ومتسائلاً عمّا يكون دفعني للمجيء إلى هنا وحول ما كنت أنتظر أن أرى من حال المحلّ. لم أشعر بإلحاح تدبّر أمري قبل هبوط الليل. قلت لنفسي سوف نرى فأنا الآن على ما يرام. الطقس ربيعي دافئ ولا بأس حتى لو اضطررت للمبيت ها هنا فليس من آدمي يُخشى منه ومن سلاحه في كلّ السوق. فتحت كيسي وأخرجت رغيفاً جعلت فلقتيه فوق بعضهما على ذراعي. ثم صففت عليهما قطع الجبن ولففتهما فوق كيس النايلون ورحت أقضم تارةً من رغيف الجبن وطوراً من البندورة شاكراً ربي أني بقيت حاملاً الكيس طيلة النهار ولم ألق به في الزبالة بعد أن قال لي أبو عدنان إن بيتي لم يعد بيتي في الوقت الحاضر. تمدّدتُ وأسندتُ رأسي إلى الحجر الذي كنت جالساً عليه وتغطيت بجاكيت الجوخ.

في صباح اليوم التالي أيقظتني زقزقة العصافير. العصافير! لا بدّ أني أحلم قلت لنفسي إذ مضى زمن، منذ بدء الحرب، لم أرَ فيه هذه المخلوقات العجيبة في سماء المدينة. نهضت صافي المزاج ونظرت طويلاً حولي في هذا السكون الغريب ثم دخلت إلى المحلّ. إلى جانب الرماد الأسود والأبيض شاهدت كوماً من الحجارة الصغيرة المختلفة الأشكال، العجيبة في ألوانها واستداراتها. وسرعان ما أدركت أنها قطع النايلون المحترق المتكوّم بعد اشتعال الأقمشة الرخيصة المتنوعة التي قرّر أبي بعد عناء طويل الإتجار بها وأفرد لها كلّ هذا الطابق الأرضي، لا يأتي على سيرة القماش الحقيقيّ، كما كان يدعوه، إلاّ للزبون أو الزبونة ذات القدر والتي تستحقّ أن يُنزلها إلى الطابق السفلي.

الطابق السفلي. الطابق السفلي.

توجّهتُ إلى عمق المحل الذي فقد أحد جدرانه واقتلعت شجيرة كانت نبتت هناك، ومستعيناً بأحد أشلاف الحديد المقصوفة رحت أضرب حجارة النايلون الملتصقة بالباب الأرضي المعدني المؤدّي إلى الطابق السفلي. ظللت أطرق حتى خلعت مفصّلات الباب وأزحته تماماً كي يدخل من الفتحة الواسعة ضوء النهار. تمدّدت على الأرض وأدليت رأسي نزولاً فلفح وجهي هواء بارد. غير معقول قلت لنفسي وأنا أنهض واقفاً وأسارع إلى هبوط درجات السلّم. كان كلّ شيء في مكانه. كما حين ألقيت نظرة دائرية بحسب ما كنت أفعل كل مساء قبل أن أطفئ الأنوار وأقفل الباب الأرضي وكما فعلتُ في اليوم الأخير من نزولي السوق إلى عملي. كلّ شيء كما كان. لا أثر حتى للغبار. عرفت ذلك دون أن ألمس أياً من الأثواب على لفائفها. من الالتماع الخاص بكلّ نوع من أنواع الأقمشة والأنسجة، عرفت أنها تردّ الضوء حرّاً لا يعيقه أي غبار. ضوءها الخصوصي الذي أعرفه جيداً ويصنّفه بؤبؤ عيني بسهولة ويسر منذ عشرات السنين.

لعلّها أجمل لحظة منذ ولادتي... تسلّقت الدرج بسرعة إلى الطابق الأرضي وقلبي يضرب في صدري بقوة. خرجت من المحلّ ورحت أُفكّر. ثم رحتُ أبحث في طول سوق الطويلة رواحاً ومجيئاً عن روح حيّ فلم أجد. أسفت لخلعي الباب الأرضي وقررت أن أعيد مفصّلاته إلى مكانها فلا أحد يدري. سارعت الخطى إلى المحلّ ثم عدت وخرجت منه وجلست على الحجر قبالة بابه الفاغر إلى الشارع. ليس هناك من باب. الأبواب الخشبية القديمة لم أجد لها أثراً... احترقت لا بد تماماً وتفقّع زجاجها وصار طحيناً... والباب الحديدي الجرّار شمّره الحريق، وربما القصف الذي خرّب الشارع كلّه، وبات مرفوعاً إلى أعلى بموازاة الإسفلت وفي زاوية قائمة تقريباً على حائط العمارة.

بقيت حتى المساء جالساً على الحجر متفكّراً. ما وجدته سليماً في الطابق السفلي يضمن لي العيش حتى آخر أيامي لو بعته. وباستطاعتي أيضاً أن أستأجر محلاً جديداً في مار الياس أو الأشرفية وأحيا حياتي على مهل، كالسابق، في بيت صغير قرب المحلّ. غرفة ودار ومطبخ بإيجار بسيط.

نعست قبل أن يدبّ الليل... وداخلتني الخشية فلم أنزل إلى المخزن في الطابق السفلي لأنام هناك. كأنّي بعد غير جاهز. أعدت الباب الحديدي إلى الفتحة الأرضية كيفما اتفق وعدت إلى حجري في الخارج... قبل أن أغفو خطر لي أن تكون الفئران أو الجرذان وصلت إلى القماش وعاثت فيه فساداً. لا، هذا غير وارد قلت لنفسي. لكنتُ شعرت. لكنتُ رأيت... ونمتُ قرير العين.

قضيت أياماً كثيرة وربما أسابيع لا أجرؤ على الخروج من سوق الطويلة. فأنا لم أجُلْ في وسط البلد كغيري حين توقّفت المعارك بعد ما سمّي بحرب السنتين. لم أجُلْ فيه وعجبتُ من أمر هؤلاء الذين ألبسوا أولادهم ثياب الأحد وحضّروا السندويتشات والمرطّبات والبزورات وراحوا يتنزّهون في الخراب الذي كان منذ زمن قصير حركة لا تهدأ وازدحاماً لا يُطاق. راق لهم، في ما يبدو، أن تستمتع آذانهم بفراغ هذا الفضاء من الضجيج والمزامير وخرير موتورات السيارات وصفير شرطيّي السير ونداء الباعة الجوّالين وعلى البسطات... وكان هؤلاء بدأوا استعمال مكبّر الصوت الذي يشتغل على البطاريات وكأنهم كشّافة جيوش جرّارة.

لم أتنزّه مع المتنزهين. بقيت أؤجّل النزول لتفقّد المحلّ حتى عادت الحرب واندلعت من جديد فقلت ما كان من داع لذلك أصلاً. ما فائدة تفقّد الخراب ومعاينته سوى وجع القلب؟ بقيت أياماً كثيرة وربما أسابيع أتوقّف أمام الفجوات التي كانت محالّ في سوق الطويلة ولم يكن من السهل أبداً أن أتذكّر أسماءها أو أصحابها، أنا الذي ربيت هناك. حتى جدرانها كانت مرتعاً للأعشاب والنباتات... أمّا الأمكنة التي تقع في الفسحات وتحت ضوء الشمس فقد أنبتت أشجاراً أكثرها شجر الخروع... كيف يمكن ذلك، رحت أتساءل. من أين أتت للأرض كل هذه الخصوبة، أين ذهب إسفلت الطرقات، هل فلحته القذائف أم أن ما تساقط من الأبنية وجرفته مياه الأمطار التي عرّت الحجر، أقام على الأرض أرضاً جديدة؟ أم تراني كنت غائباً عن الوقت ساهياً عن جريانه منذ بدأت هذه الأحداث للتحوّل إلى حرب. أنا الذي ربيت في هذه الشوارع الضيّقة لم أعد أعرف إن كانت شجرة الأكيدنيا التي اقتتُ من ثمارها لمدة طويلة موجودة في مكانها هنا، قرب بركة العنتبلي، منذ كان السوق سوقاً، أم أنها نبتت وأثمرت في غيابي... في كونسرتو هذه الجنة التي أشعلها الربّ إشعالاً لتغلب الخراب وتمحوه وتنتصر عليه. ليستردّ الترابُ سلطته، ولينقلبَ وجهُ هذه المدينة مرةً أخرى ويخرجَ منها أهلُها لتوكل لساكنين جدد.

أقرش الصنوبر ممزوجاً بنثرات الثلج ثم أعود إلى جرعاتي الصغيرة من كأس الجلاّب متسائلاً كيف يستطيع المعلّم العنتبلي أن يمزج الحلاوة بالبخور... ومن أين يأتي بهذا اللون الخمري لجلاّبه الذي يضيء أحمرُهُ بصفاء عجيب لم يتوصّل إليه أحد من معلّمي الجلاّب المشهورين حتى المعلّم الدمشقي الذي فتح زاوية في سوق الفرنج، وراح يرسل رسائل التحدّي للمعلّم العنتبلي، ويُكثر من كميات الصنوبر والزبيب للزبائن الذين أبدوا استعداداً للاختبار والتجريب. كلما جرعت جرعة صغيرة رحت أنظر إلى مستوى السائل في كأسي مستمتعاً ومتحسّراً في آن... حتى يأخذني حديث والدي تماماً. فكلّما حدّثني أبي عن جدّي الذي لم أعرفه، وغطّى عينيه ذلك الوشاح الرقيق الذي يغطّي أعين الناس حين ينظرون إلى البعيد وينسون من هم بقربهم محاولين التذكّر، نسيت أنا كلّ شيء، وحضرني وجه جدّي الذي اخترعته من رأسي وجعلت قسماته تشبه قسمات وجه أبي مضيفاً إليها بعض القسوة والسنوات.

كان جدّي يقول إن مدينة يكون بانيها زُحَلْ كما روى الأقدمون، لا تلبث على ازدهار. وإن رغد العيش فيها لا يطول حتى ينقلب عاليها أسفلها. ولذا كتب اليونانيون على عتبة باب الدركة التي كانت عتبةً لباب آخر اختفى واضمحلّ: أيها الداخل في هذا الباب افتكر بالرحمة. نُكبت في أيام الأشوريين والفرس وحلفاء الاسكندر وبقيت خراباً خمسة وسبعين عاماً إلى أن رمّمها بومبيوس وسمّاها السعيدة على اسم ابنته جوليا فيلكس، وفي عهدها بُنيت مدرسة الشريعة العظيمة التي ازدادت عظمة في عهد اسكندر سفيروس إذ عزّزتها مئات المدارس الصغيرة. وحين راح نجمها يشعّ وسُمّيت مُرضعة الفقه ضربها الزلزال وقلب أرضها قلباً... وإثر حروب المردة ومقاتلي معاوية ثم يزيد بن أبي سفيان استتبّ الأمن فيها حتى أواخر القرن التاسع حيث تولاّها الأمير نعمان بن عامر الأرسلاني الذي حصّن سورها وقلعتها، فتوافد إليها القضاة والأئمة والتجار إلى أن ضربها زلزال عظيم آخر... وبقيت الحروب المتعاقبة تهزّها بين فترة وأخرى دون أن تهدّها، ولكن دون أن تترك لبنيانها أن يزدهر، ولتجارتها أن تنشط. وحاصرها ملك الافرنج بلدوين في عهد سعد الدولة الطواشي الذي اقتلع بلاطها خوفاً من أن يَصدُق المنجّمون الذين حذّروه من انزلاق فرسه وموته لذلك. لكن من مات في بيروت كان بلدوين نفسه قبل أن يحاصرها صلاح الدين الأيوبي، وينهب فيها ما تركه حصار بلدوين وحصار الأسطول المصري، فيقطع كرومها وزيتونها، ويهدّ عمرانها.

لا تخف، كان والدي يقول، لا تحملق هكذا، ماحكاه لي جدّك حدث من زمان بعيد.

ويقول جدّي إن الافرنج متمسّكين بحلم السيطرة عليها، يغيرون على أهلها كلّما استطاعوا فلم يهنأ فيها عيش. وفي عهد المقدّم في أمراء الإفرنج، القس الألماني المعروف بالخنصلير، قويت شوكة هؤلاء، فعزم الملك العادل على كسر هذه الشوكة وكانت نتيجة المعارك أن هُدم السور، وخُرِّبت القلعة، وهُدِّمت الدور، واستتبّ الأمر للافرنج حتى قدم إليها سنقر الشجاعي قائد جيوش الملك الأشرف خليل بن قلاوون فعاد وخرّبها من جديد، أو قل خرّب ما كان بقي قائماً فيها ورمى عليها الكلس الحارق.

لماذا يا أبي، كنت أسأل. تلك هي بحسب جدّك، حياة مدينة خُلقت تحت تأثير زحل. الكوكب القاسي.

ويقول جدّي إن العمران عاد إلى المدينة خلال أقلّ من عشرين سنة قبل أن يضربها الطاعون ويزهق أرواح أهلها ممّن لم يعمدوا إلى الهرب. وحين تطهّرت الأرض عاد إليها مَن غادرها، ثم عمرت ورجعت إلى حال من الازدهار جعل ابن ملك البندقية يقصدها للتنزّه مع جماعة من أتباعه وأصحابه. واستاء أهل المدينة من سلوك الأمير العنجهي، فكمنوا له ولمرافقيه وقتله بالحيلة شيخ أعمى... ولما وصلت الأخبار إلى ملك البندقية جهّز للانتقام مراكب حربية ضخمة عديدة، وأرسلها إلى الشاطئ، فضربته ودخلت العساكر بيروت فأحرقتها وهدّمتها، وقتلت كلّ من لم يهرب من أهلها. وبقيت المدينة خربة لمدة طويلة.

وتلت ذلك حروبُ التنوخيين وأمراء كسروان ثم حروب اليمنية والقيسية، وفي أيام الأمير الشهابي بشير ابن الأمير حسين صارت بيروت كالقرية المهجورة، إلاّ أن إخوته ثم أولاده وأحفاده أعادوا بناءها وحسّنوا فيها كثيراً إلى أن عاد إليها الطاعون فجرفها جرفاً. وبعد أن فرّ إليها الجزّار من والي مصر حاصرتها المراكب المسكوبية بأمر من ظاهر العمر، فأحرقت مبانيها ونهبتها. ولما عصى فيها الجزّار أوامر الأمير يوسف وخدعه في وعد تسليمها إليه، عادت السفن المسكوبية بعساكرها بطلب من ظاهر العمر إلى بيروت وحاصرتها براً وبحراً وأطلقت عليها المدافع ليلاً ونهاراً طيلة أربعة أشهر.

وتلا ذلك - يقول جدّي - حروبٌ بين المسلمين والأروام؛ ثم خرّبتها عساكر ابراهيم باشا المصرية ولم تُخرج هذه العساكر سوى مدافع مراكب الدول الأوروبية المتحدة مع عساكر ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان... وبعد أن نقلت الدولة العثمانية مركز حكومة الإيالة من صيدا إليها، وأقامت عليها سليم باشا والياً، ظلّت تتقدّم أحوالها وتنتعش الحياة فيها، فاستقبلت القناصل وتجّار الافرنج، وكثر فيها الشارد والوارد.

وبقيت فيها العساكر الانكليزية زماناً بعد إخراج حكومة مصر من سورية، وإذاك اقتضى توسيع مبانيها لغلاء أجورها، فامتدّت الأبنية إلى خارج السور بسرعة كبيرة حتى أن كثيرين من عارفي ذلك الزمان قالوا إن سرعة تقدّمها في تلك المدة ربما كان لا يضاهيها فيها مكان في أوروبا نفسها. وكثر أيضاً عدد ساكنيها إذ هرب إليها أهل القرى التي اشتعلت فيها الحرب الأهلية... واستمرّت ازدهاراً على ازدهار لا تؤثّر فيها إلا حَسَناً حروب الدروز والنصارى حتى سنة ١٨٦٠ حيث راحت التعدّيات في دمشق ووادي التَّيم وجوار بيروت تُتلف المال وتشلّ التجارة، فيما أعداد القادمين إليها والمستجيرين بها تزداد، إلى أن وصلها العسكر الفرنسي، وحلّ فيها معتمدو الدول الذين جعلوا لبنان متصرفية مستقلة متعلّقة رأساً بالباب العالي، وإذاك شهدت بيروت ازدهاراً قلّ نظيره ترافق مع شقّ طريق آمنة بينها وبين دمشق كفلتها شركة فرنسية، وجعلت المدينة مركز اتصال أوروبا بسورية تشجّع على ذلك تسهيلات البنك العثماني. ثم ازدادت ازدهاراً على ازدهار حين جُعلت متصرفية، فنبتت فيها المدارس كما ينبت الفطر: مدرسة الروم الأرثوذكس فالروم الكاثوليك فالمدرسة الكلية السورية، فالانجيلية الأميركية، فاليسوعية ثم الحكمة للموارنة، ثم راهبات اللعازارية فراهبات البروسيانيه فمدرسة مسز طومسون الانكليزية ثم راهبات الناصرة فالمكتب السلطاني العسكري... وترافق كلّ هذا مع نموّ وانتشار كبيرين للمطابع والجرائد والمجلات...

وإذّاك - يقول جدّي عن أبيه - قرّرت العائلة الرحيل إلى مصر حاملة معها كمية كبيرة من أهمّ صادرات هذه البلاد: الحرير وخبرة ميزانه وصناعته التي اكتسبها أهل بيروت من أيام الأمير منصور الشهابي.

ويقول جدي إن أباه لم يرحل إلى مصر في سبيل التجارة فقط، بل لأنه كان يحتسب عمر ازدهار بيروت ويقول إن خرابها المقبل بات قريباً، وإن دورة العيش الرغيد ستكتمل وتنقفل، لا بدّ.

وجدّي يعتقد بذلك أيضاً مثل أبيه...

لماذا - سألت أبي - وبيروت هانئة راغدة العيش؟

لأنّ جدك يؤمن بأن لدورة الحياة إيقاعها الواضح في هذه المدينة، وأن حياتها لا تتجدّد إلاّ بعد خراب وموت عظيمين. فأرضها طبقات متعاقبة من الحيوات التي عبرت؛ وهي ليست كأرض المدن التي تعيش أزمنتها في حركة الهواء على السطح فيسري التحوّل في أبنيتها ولا ينفذ إلى باطنها. لكنّ اعتقاد جدّك يتأتّى أيضاً من غيرة داخلية ممّن مكثوا يعيشون في بيروت... إنها حرقتُهُ من عناد أبيه في منعه من العودة إليها.

إنه شوق جدك وحبّه لهذه المدينة الممنوعة عليه والبعيدة.

وأنا فهمت كلّ هذا... وها نحن نعيش فيها آمنين راغدين، فلا تخشَ شيئاً.

اختفى كلّ ما كان يثير حزن أبي في الآونة الأخيرة ويجعله يتذكّر نبوءات أبيه وجدّه المزعومة.

ترمّد كلّ ما كان في الطابق الأرضي، وكان غزا المحلّ على دفعات، كأنْ رغماً عن إرادته، وسبّب له ما يشبه الخجل من نفسه والزهد، في أواخر أيامه، ممّا صرف حياته في حبّه وعلمه وشؤونه وتتبع أخباره وحكاياته. كان ينظر إليّ بجانبه قرب المدفأة الكهربائية، ويهزّ رأسه أسفاً، وحين أسأله ما الأمر يا أبي كان يقول بعد تلكؤ، مقلّلاً من أهمية الكلام: لا، إنه الزمن الذي تغيّر... لا بد أنه العمر أوغل فيه وأصبح ككلّ العجائز لا يعجبهم سوى الزمن الذي مضى، ولا يرون في الحاضر إلا التلف والنقصان... لكن الحال الآن هي أنك بائع قماش لا أكثر، تبيع في حانوتك بضاعة لا صنّاع لها ولا تاريخ... لا تعرف حتى ممّ تتكوّن ولا من أين تأتي... مجرّد بائع يحسب رأس ماله وأرباحه... يبيع ويشتري. هكذا. أنت تعرف عمّك الحاج أكبر مكتبي، وكيف حين يتكلّم عن السجاد ترى كأن بأمّ العين أجداده الفرس والإيرانيين منكبّين على الصحائف يدوّنون علمَهم ومغامرات أسفارهم وعادات الشعوب البعيدة من عقد خيط الصوف إلى تلوينه وحسبان عدد الحبكات بحسب معتقداتهم الدينية... قارن عمّك الحاج أكبر مكتبي ببائعي السجاد الألماني المتجوّلين في ساحة البرج... يحمل سجّادة على كتفه أو بالونات ملوّنة للأولاد... أو سلّة تين يابس لا فرق. يهزّ أبي رأسه أسفاً، يكمل أكل الكستناء أو شرب الشاي ولا يقف مرحّباً عند دخول الزبونة. أحتار قليلاً، أتردّد ثم أقف منتظراً طلباتها. تجول بنظرها على الرفوف وقد تخرج دون أن تنبس ببنت شفة فأعود إلى كرسيّ بجانب والدي. أجلس صامتاً وأقرّب كفّي من المدفأة الكهربائية.

لم يعش أبي لينعم برؤيتي أكنس رماد الطابق الأرضي: النايلون والبوليستير والديولين والأسيتات. مرسوريزيه دون حرير، صوف اصطناعي يتفقّع تحت شمس قوية، ساتان يتكهرب في الضوء، فوال يصفّر من الرائحة ويلتوي من الهواء... فسكوز، روفيل، كريلور... تقليد بدأ بالترغال وانتهى انحطاطاً إلى الديولين...

الطابق الأرضي هو الآن شرفتي الجميلة. أقطّع عروق الحمّيضة على أوراق السلق والهندباء البرّية، وأنظر حولي متبسّماً مستحسناً... لم أُبقِ من النباتات البريّة سوى بعض الخنشار. والمعرّشات نقلتُها بجذورها الصغيرة من جدران الجيران وزرعتها في ثقوب جدراني... كذلك فعلت بشجيرتي سمّاق جعلتهما عند طرفي المدخل، قرب حوض النعنع البري والرند الشهيّ الرائحة... وبعد الغداء سأتمشى حتى شارع فوش بعد أن تأكدت من خلوّ كل هذه المنطقة، لكن من شارع اللنبي سأسلك شارع عبدالله بيهم لا شارع البلدية كما فعلت في المرة السابقة حيث قطفتُ ملء طاسة كبيرة من كبوش العلّيق الناضجة، واعداً نفسي بالعودة بعد أيام بانتظار أن ينضج فوج آخر من هذه الثمار اللذيذة.

وهذا المساء سأقطع من أمام العجمي وأسير في خان فخري بك حتى جامع المجيدية أو جنوباً حتى مقبرة السمطية... ففي رأسي تجول منذ فترة فكرة جهنمية وتزداد رغبتي في رؤية البحر وأكل السمك. واتكالي على الله وعلى صنارتي التي صنعتها ووضّبتها منذ أيام...

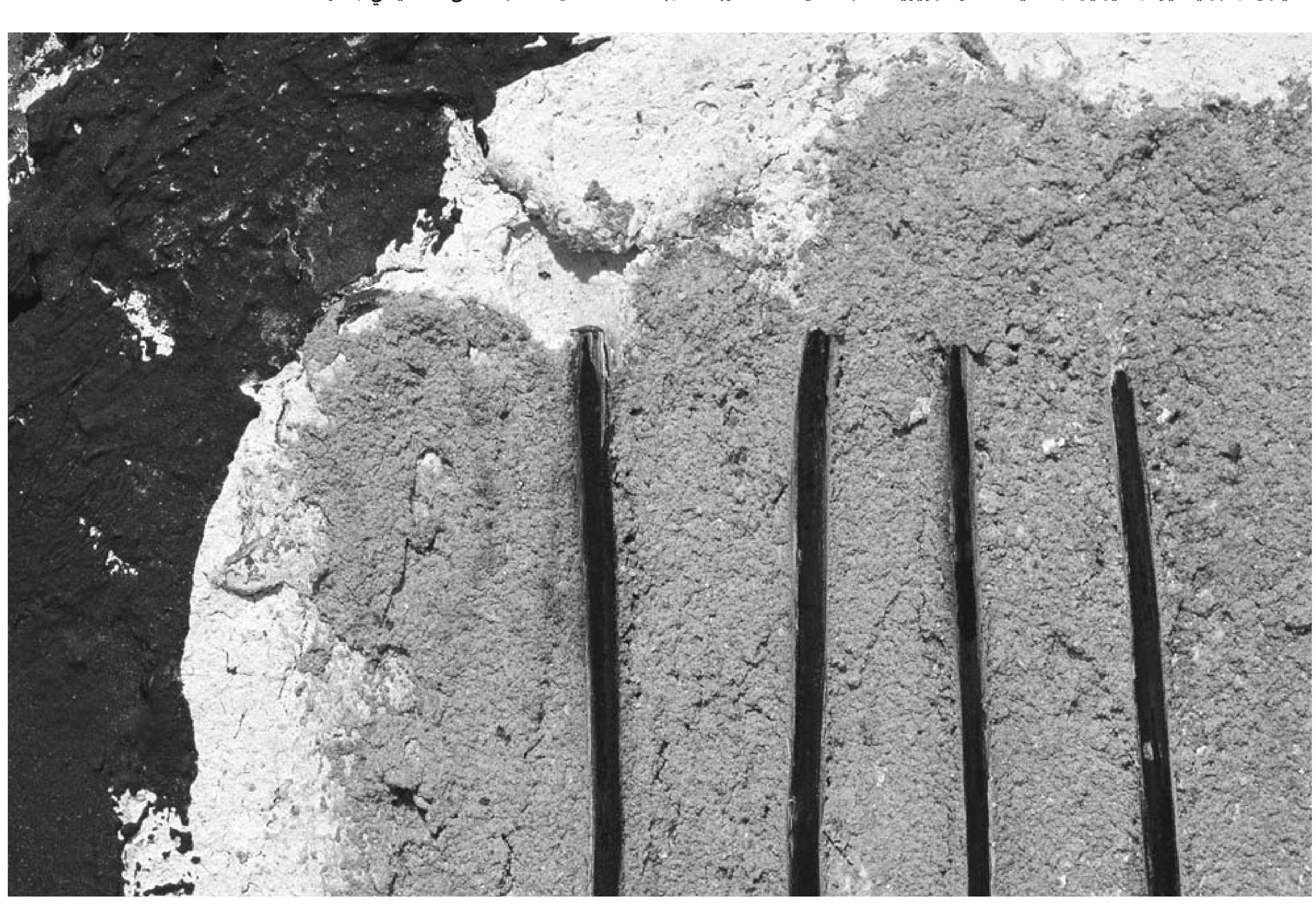
إلا أني ما أزال، حين يقوى دويّ الانفجارات، وتملأ سماء الأسواق الشهبُ النارية رواحاً ومجيئاً فوق رأسي ومن حولي، أفضّل النزول إلى بيتي مع حلول المساء... فما زالت هذه الأصوات تزعجني ولو أنها ما عادت تخيفني بالمرّة...

أقول بيتي... والأجدر بي أن أقول قصري. فأنا أعيش في قصر لم يتوفّر حتى لهارون الرشيد على ما كنت أسمع وأقرأ.

فبعد أن حللت الربطات وبسطت القماش الملفوف على البكرات رحت أُعمل خيالي ورغباتي لتجهيز مسكني وتأثيثه، تحدوني سعادة غامرة. كلما أنزلت ثوباً من تلك الأنسجة والأقمشة الدرر العجيبة، فلشته على الأرض ورحت أتأمله من بعيد، من كافة زوايا الضوء. أكاد أبكي فرحاً ودهشة قبل أن أتقدّم للمسه... ثم التعرّي تماماً والالتفاف داخله ليلة كاملة... أتشمّمه وأسمع حفيفه من داخل، ألصقه بكامل جلدي لأسترجع تفاصيل ذاكرتي التي تخصّه، لأعيد كأنْ قراءة ذاكرتي هذه في خصائصه ومكوّناته صفحة صفحة... كلمة كلمة... حرفاً حرفاً... ولأستفيق فجراً من داخله، ثم أخرج منه وأعيد النظر إليه في الضوء الجديد الطالع وفي الضوء المتغيّر عليه وفيه حتى ما بعد الظهر وإلى المغيب... وإذاك أعيد طيّه أو لفّه على البكرة، ثم أضعه جانباً لأنتقل إلى غيره.

هكذا حتى انتهيت من كلّ الأثواب والبكرات. ثم حملتها كلّها إلى الطابق الأرضي. تأمّلتها جميعها في ضوء النهار. تركتها تتهوّأ نهاراً كاملاً ثم رحت أنزلها واحدة تلو الأخرى مقرّراً توزيعها على السقف والجدران والأرضية. بعض ألواح الرفوف استعملتها هياكل لسرير عريض ومقاعد وطاولة واطئة في الوسط. وبحسب الداكن والفاهي من الألوان وزّعت ضوء السقف إلى الداخل وجعلته ينعكس على التماع القماش أو نشافه، شربه الضوء أو ردّه إيّاه... وبحسب البرودة أو الحرارة كان تحريكي لبعض الأقمشة يجعل جوّ بيتي معتدلاً هانئاً كيفما تقلّب طقس الخارج، وتكثّفت الرطوبة أو شحّت في الهواء.

أمّا بعض البكرات وبخاصّة تلك القديمة المصنوعة من العظم فقد جعلتها قساطل وجررت فيها مياه الينابيع الصغيرة حيث وجدتها إلى قرب مصطبتي... وفي نيّتي أن أجرّ المياه من مسافات أبعد، وأن أحفر في الأرض حالما تصبح حديقتي جاهزة.



كانت أمي تحبّ الفساتين لا القماش، توضيبَ المائدة لا الطبخ، صوتَها الأوبرالي لا الغناء. وهي لم تكن تكذب بل كان يعجبها أن تؤلّف الحياة تأليفاً.

تأتي خيّاطة الأكابر مدام رحمه إلى البيت بالقماش الذي يكون اختاره أبي لفساتين أمي الخاصة بالمناسبات. ومن الشنطة الجلدية الكبيرة التي تشبه حقائب الأطبّاء، تُخرج مدام رحمه مجلاّت الأزياء، تقرّب كرسيّها من كرسيّ أمي، تُبعدان فناجين القهوة، وتبدأن حواراً طويلاً غالباً ما تخرج منه مدام رحمه حانقة رغم تهذيبها المفرط، وتروح تُكثر من استعمال الكلمات الفرنسية ظنّاً منها أن ذلك يخفّف من وقع كلامها على أمي التي لا يعجبها من أزياء المجلاّت زيّاً كاملاً بل ياقة هذا على كمّ ذاك... حتى ينتهي بها الأمر إلى اختراع ما قد لا ترضى مدام رحمه بتنفيذه إلاّ بعد مساومات... عندها تجلسان مجدّداً إلى الورقة والقلم وتتركان لي لذة تقليب المجلاّت والتفرّج على تلك السيّدات الناحلات كلهنّ إلى حدّ يصعب تصوّرهن يمشين في الشارع دون انقصاف خصورهن، سيّدات ناحلات متبسّمات يشرن بأيديهن كأنهن يشرحن فكرة صعبة لكن لطيفة لمستمعين كثر... ولا تكتمل رغبتي إلاّ حين تقوم مدام رحمه إلى القماش، تقلّبه في اتّجاهات عديدة، ثم تلقيه على جسم أمي أو تحيطه به، مبتعدةً عنها قليلاً، ناظرةً من عدة اتّجاهات إلى قوامها، لاويةً رأسها الأشيب يميناً ويساراً قبل أن تشرع في القصّ والتفصيل، مستعينةً بصابونتها الصفراء الصغيرة وعلبة الدبابيس والماسورة التي تلفّها حول رقبتها منكبّة على الترقيم كمهندس جليل... ثم ترمي لي بقصاصات القماش التي ألمّها بسرعة قبل أن تلقيها أمي أوّلاً في سلّة المهملات لشدّة انزعاجها من الفوضى التي يُعيثها يوم الخياطة في صالون بيتنا المرتّب دوماً.

آخذ قصاصات القماش بين يديّ، أضغط عليها بأصابعي، أقرّبها من أذني، ثم أفتح يدي لأسمع حفيفها السرّي. أشمّها مغمضاً عينيّ قبل أن تزول رائحتها الأصلية الطيّبة، وتصبح شبيهة برائحة الورق أو رائحة الأثواب الملبوسة: الصابون أو العطر أو الجسم الآدمي. أنزوي وراء الكنبة قبل أن تأخذها مني أمي غاضبة، أنظر إلى التماعها وأنا أبعدها شيئاً فشيئاً عن مصدر الضوء. أغمض عينيّ ثم أفتحهما فجأة لينطبع هذا الضوء الجميل في مخيّلتي حين سأسترجعه في الليل لوحدي قبل أن أغفو، وبعد أن تزيل أمي من كافة أرجاء البيت آثار مرور مدام رحمه في بيتنا.

لم تكن أمي تحبّ القماش... ولم تكن تلتفت، حين تنتقي زيّ ثوبها، إلى ثقله أو كثافته أو انسداله. لم تكن تلتفت إلى حسن تزاوجه وتجاوره. وكانت مدام رحمه تستاء من عناية أمي بالألوان فقط، وتجد في ذلك ظلماً بشرياً ما، يجعل أمي كأنّها غير كفوءة بأن تكون زوجة أبي، ذلك الرجل الذي يعرف القماش ويفهمه إلى هذا الحدّ...

وبلغ الاستنكار بمدام رحمه ذات يوم أن شرعت في لملمة أغراضها حين طلبت إليها أمي أن تُدخل في بطانة الياقة حشواً من الفسكوز بدل التولاّ ليسهل كيّ البيكيه الأبيض. نظرت مدام رحمه في عينيْ أمي طويلاً، شدّت عقصة شعرها الأشيب بيديها الاثنتين، ثم بدأت تجمع أغراضها وهي تقول لأمي: مدام أنا أسفة... سيشرح لك الأمر الخواجه متري... وحين تقتنعين تعرفين أين تجدينني. بونسوار.

ابتأس قلبي طوال بعد الظهر في حين مال مزاج أمي إلى الخفّة والانشراح حتى عودة أبي في المساء. وجدها عابسة مزمومة الشفتين، ولمّا سألها عن السبب قالت: أنت تنتقي القماش والستّ مدام رحمه تنتقي الزيّ والموديل... وأنا؟ كلّما اقترحتُ عليها تعديلاً بسيطاً عنّفتني... أهي خياطة أم ماذا؟ لا، قال أبي، إنها أكثر من خياطة بكثير... وحين شرحتْ أمي لأبي وجهة الخلاف مصرّة أن مدام رحمه لم تعد على الموضة وأنها لا تعرف التجديد، اتّخذ وجه أبي سحنة جادة، فأصاخت أمي السمع.

إسمعيني جيداً يا أتينا، قال أبي لأمي: هل تعرفين أن بعض المزج كان ـ ولا يزال ـ ممنوعاً في الكتب المقدّسة اليهودية؟ هل تعرفين أن هذه الكتب حرّمت مثلاً أن يحرث الرجل حقله على ثور وحمار يكدنهما معاً في محراثه، وحرّمت أيضاً لبس قماش من خيطين من طبيعتين ومصدرين مختلفين... ليس فقط من أجل ألا يجتمع مما فرّقه الله، بل لأن في المزج مغامرة غير محسوبة النتائج، قد تفشل فتورث خسارة وندماً، وقد تنجح فتعطي تآلفاً حسناً إلا أن نجاحها خطر أيضاً إذ هو يعزّز كبرياء البشر وغطرستهم وقد يوحي لهم بمقدرة ليسوا هم أهلاً لها تُفسد أصل الأشياء والمواد التي تطالها أيديهم.

ياه... قالت أمي.

اسمعيني جيداً يا أتينا. أهم ما يميّز مدام رحمه أنها ليست على الموضة. لأن الذوق والذائقة الحسنة لا يخضعان لما تسمّيه الموضة. فهل تعرفين أن أصل كلمة موضة ظهر في بلاطات الأمراء الإيطاليين والفرنسيين ما بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر لتعميم الثمين جداً من القماش وترويجه أي ما كان مقصوراً أنذاك على القدسيّ من لباس أحبار الكنيسة والملوك، ولإعطائه قيمة المتاح لدى العظماء والأثرياء... والموضة لم تصبح فقدان الذاكرة التكراري إلا منتصف القرن الماضي حين بدأ المزج القبيح، النغل، وحين بدأت تتكاثر دكاكين «النوفوتيه» حيث عُمّمت هرطقة بيع القماش إلى جانب أشياء وأغراض أخرى مفبركة بحسب مقاسات عموميّة، وحيث بات صغار التجار يبيعون أيّ شيء لأيّ كان... وقبل أن يبدأ صنّاع الثياب ـ ذات المقاسات العمومية التي لا تعرف جسداً ولا تعترف بفرادة كلّ جسد ـ قبل أن يبدأوا فرض الموضة والزيّ على صنّاع الأقمشة فيقلبون بذلك المسار الطبيعي للأمور، كنا نحن في الشرق، صنّاع الأقمشة والأنسجة نتقدّم في المزيد من كمال صنعتنا وحسنها، ويتقدّم خيّاطو الأثواب في اتقان العلاقة الفذّة بين القماش والجسد لإعطائه شكله الأمثل.

ياه... قالت أمي مرّة أخرى وقد ضاقت ذرعاً... لو كنّا ما زلنا من الأثرياء لانتقيت أثوابي جاهزة مثل سيّدات المجتمع... لسنا أثرياء قال أبي... لذا نحن مضطرّون لاسترضاء مدام رحمه. فالفيسكوز لا يحلّ محل التولاّ في حشو الياقة... ليس بعد. ليس بعد يا أتينا.

لم نكن أثرياء في حياة أبي لكنّ هذا لم يكن السبب في رفضه المستمرّ لأن تعيش في بيتنا خادمة، وسرعان ما أقلعت أمي عن الفكرة حين بدأت أم طوني العكّارية تأتينا مرّتين في الأسبوع: مرّة لتنظيف البيت ومرّة لتحضير الأكلات الصعبة. وفي هذين اليومين كانت أمي تغادر البيت بحجة إن فتح الشبابيك ودلق المياه يضرّ بحنجرتها وكذلك تفعل رائحة القلي والشواء. وبعد أن عجزت أمي، وبتّ لا أستطيع تركها في البيت وحيدة طيلة النهار، ودخلتْ بيتنا الخادمة الكردية شمسة، بقيت أمي تتأفّف من فتح الشبابيك ومن رائحة الطعام. وكانت تلحق طوال النهار بشمسة من غرفة إلى أخرى، تتأكّد من إغلاق الشبابيك وترقبها حتى تنتهي من أعمالها اليومية، فتجرّها إلى غرفتها التي لم تكن ترتضي أن تلمس شمسة فيها شيئاً إلا في مرّات نادرة قليلة، وبعد أن أتدخّل بشيء من الحزم. وفي غرفتها تروح أمي تروي حكاياتها المكرورة والمختلقة والحقيقية على شمسة التي سرعان ما تغفو متربّعة على الأرض، وأدخل أنا مساء غرفة أمي فأجدها واقفة تنشد تمارينها الأوبرالية. فأهزّ كتف شمسة هزّاً خفيفاً، فتقفز قفزة واحدة إلى الصالون لتضيء التلفزيون وتتربّع على الأرض قبالته، وأنا أحمل أمي إلى الحمام لأغسل وجهها بالماء الفاتر وأزيل عنه المساحيق والألوان التي تثير حزني. ألبسها قميص نومها، أطعمها، وأمسح وجهها بماء الورد قبل أن أجدّل شعرها وأعقده بالشريطة الساتان البيضاء، وأغطّيها في سريرها متمنّياً لها نوماً هانئاً... أردّ باب غرفتها وأدخل مباشرة إلى المطبخ حيث تلحق بي شمسة وتعاونني على تحضير عشائي، إلاّ إذا كان «أبو سليم الطبل» في برنامج سهرة التلفزيون. إذّاك أعرف أني سأجهّز عشائي وحدي، وآكل في الصالون على صينية صغيرة مستمتعاً أيّة متعة بفرقعات ضحكات شمسة التي أضاءت حياتي ذات الشبابيك القليلة المحكمة الإغلاق.

اليوم، بعد أن شربت العشرات من بيض العصافير، وأكلت الجرجير اللذيذ شعرت بنفسي قوّة جعلتني أقرّر جدّ المسير إلى أواخر أطراف ساحة الشهداء حتى الباريزيانا وقبالتها قيصر عامر ملك الألعاب النارية التي لا بدّ جعلت السماء عيداً ليلة كاملة حين احتراق المفرقعات... بعدها التففت من عند عصير الزين، الذي سبق أن حملت منه صينيّتين معدنيّتين إلى بيتي، ومن أمام مقهى اللاروندا ثم مسرح شوشو إلى غومون بالاس، السينما الشهيرة التي لم أدخلها بعد كما دخلت منذ أيام سينما بيبلوس التي حملت منها ألواحاً بلاستيكية جعلتها فوق نبات حديقتي لتقوّي ضوء الشمس والحرارة أيام البرد والشتاء... كذلك أرجأت الدخول إلى مبنى اللعازارية مكتفياً بقطاف بعض أزهار الخاتمية التي نبتت على أطرافه كأنْ قبل موسمها، لأجفّفها على مصطبتي وأشرب نقوعها حين أصاب بالزكام. خطر لي أن أكمل حتى كاراج بنت جبيل ومحل أبو سعيد السوّاس - كما كنّا ندعو بائع العرق سوس الطيّب - إلاّ أني قرّرتُ أن أعود وأتوقّف في كنيسة مار جرجس قبل أن أدخل الأسواق الصغيرة من درج خان البيض كما كنت فكّرت مرّات عديدة ثم أقلعت عن الفكرة حتى إنضاجها في رأسي، وأيضاً لشدّة ما منّيتُ النفس باكتشافه من أشياء ثمينة ولقيّات نادرة في هذه المنطقة... وبانتظار أن يحمل الصيف يباساً إلى نباتها يجعل اقتلاعه من الجذور أكثر يسراً عليّ لفتح بعض المنافذ والشوارع الصغيرة التي باتت مسدودة تماماً.

دخلت كنيسة مار جرجس ففاجأتني البرودة ذاتها التي كانت تنعشني صغيراً ويدي بيد أبي فيما هو يمسح بالأخرى عرق جبهته. كنّا ندخل هرباً من حرّ الصيف أكثر منه للصلاة والتأمّل... لكن، في الداخل كنا نجلس على المقاعد الخشبية مستغرقين في الصمت ورائحة البخور، متأمّلين في صور القدّيسين والأيقونات الجميلة. وقبل أن نخرج، كنا نضيء شمعة بعد أن يزلق أبي قطعة نقدية في الصندوق المعدني القريب، ويبحث بعينيه عن الأرشمندريت ذي الصوت الجميل ولا يجده.

كانت الكنيسة فارغة تماماً. احترقت بكاملها كما التياترو الكبير غير البعيد. لا بدّ أنها نُظّفت وأفرغت من داخل خلال فترة الهدوء إذ حتى كوم الرماد والحجارة لم تكن هناك... لم يكن فراغها مهيباً على نحو خاص. كانت كأنها ملعب شتوي أو مخزن فارغ من مخازن المرفأ. تقدّمتُ إلى مكان الأوخاريستيا الذي أضاءته فتحات الشبابيك التي فقدت زجاجها الملوّن القديم. كانت الأرض تحت قدميّ لينة، وُحولُها طريّة عند الزوايا، وقد بدا حائط الأوخاريستيا المقعّر الكبير كحديقة عموديّة يانعة، موزّعة المساكب، بين الهندباء البرية والنعناع والرند. عجبتُ لعدم وجود الخنشار والعلّيق وشجيرات الخروع التي غالباً ما تعيق وصولي إلى مشتهاي من الأكلات التي يسيل لها الريق. فككت شقباني، وهو رقعة الكتّان المستطيلة التي أعقدها حول خصري من طرفين وحول رقبتي من الطرفين الآخرين لأحمل فيها إلي بيتي كل ما أصطاده وأقطفه وأحظى به. فككته وفلشته على الأرض وبدأت أشقع فيه الهندباء والنعنع البرّي.

لم أعرف كيف وجدت نفسي في حفرة مظلمة تحت الأرض. كانت الفتحة الصغيرة التي وقعت منها ترتفع أكثر من مترين فوق رأسي. رحت أتلفّت حولي باحثاً عمّا يمكن أن أستند إليه لأصعد. كنت هلعاً بحيث لم أرَ شيئاً. رحت أقفز في الهواء لتلتقط يداي طرف الكوّة لكن دون جدوى. قلت لنفسي هذا لا ينفع. يجب أن أهدأ لأرى وأفكّر... ثم رحت أنظر حولي فوجدت درجاً حجرياً غير بعيد، وفكّرت بأني، لو استطعت أن أكسر الأرض فوقه لنجوت. حاولت ذلك فلم أقدر. فككت لثام الجوخ الذي ألفّه حول رقبتي إذ كان العرق يسيل مني وأنا أرتعد برداً، وجلست على الأرض أنتظر أن تعتاد عيناي على الظلمة. بعد ذلك وقفت أنظر حولي علّي أجد ما يمكن تثبيته تحت قدميّ والصعود عليه. لم يكن هناك سوى الدرج الحجري، فرحت أنزله درجة درجة يملأني الوجل. قلت في نفسي إنها لا بد كهوف المقابر حيث كانوا يدفنون أصحاب الغبطة والسيادة والقديسين الذين ستظهر عجائبهم يوماً... تابعت نزولي حتى غدت العتمة حالكة فتوقفت. فكّرت أن صعودي عائداً أمر سهل لكنه لن ينفعني في شيء... رحت أتلمّس الجدران الترابية حتى لم تعد قدماي تلمسان الدرجات بل الأرض السويّة. قلت إني لا بدّ سأجد هنا ما يمكن حمله معي إلى فوق وشقعه للخروج من الكوّة، ولو كان ذلك حجارة قبر أو عظام وجماجم أصحاب الغبطة والقديسين... وفجأة بدا المكان مضاء بنور شحيح خفيف جداً إذ وجدت أني على ما يشبه المصطبة. نظرت حولي ثم إلى أعلى، فأبصرت ضوءاً ينزلق من سقف ما يشبه الدهليز الصغير على يمين. لكني خمّنت أنه لا بدّ عال جداً فوقي وبالتالي، لن ينفعني السير باتجاهه للخروج بل ربما لتبيان ما يمكن العودة به إلى حيث سقطت تحت أوخاريستيا كنيسة مار جرجس التي ابتعدتُ عنها الآن، أو هكذا خُيّل إليّ.

كان لا بدّ إذن من أن أسير باتجاه الضوء الذي لم يكن مصدره بعيداً بأي حال. لكني، قبل أن أفعل، لمست في الجدار الذي كنت أستند إليه سطحاً دائرياً ناعماً لا يشبه ملمسه ملمس الحجارة المتربة. وسرعان ما تبيّن لي شكل خابية من الفخار كبيرة تستند يميناً ويساراً إلى عمودين قصيرين أو حجرين شبه كرويين... لبثت في مكاني أنظر متحيّراً ثم قررت أن أجوّف التراب المحيط لأنزع هذه الأشياء وأعود بها. حتى ولو بدا أن وزنها فوق مقدرتي فسأعمد إلى كسرها أو جرّها أو...

ضربت بذراعي على سطح الخابية أو بطنها الناتئ فتفتّت وانهار قطعاً صغيرة بين قدميّ. وحين ركعت على ركبتيّ لأتبيّن ما فعلت ارتدّ رأسي بانتفاضة واحدة إلى الوراء وكاد أن يُغمى عليّ لما رأيت. رأيت شكلاً آدمياً صغير القدّ، متربعاً، مستنداً بكامله إلى النصف الذي بقي سليماً من الجرّة الكبيرة مزروعاً في تراب الحائط.

إنها فتاة. رأيت شعرها. ورأيت ثوبها الذي يعكس الضوء. بقيت مسمّراً في مكاني لا أجرؤ على الحركة وكأني أخاف إن أنا حرّكتُ الهواء أن يستحيل كلُّ هذا غباراً وتراباً. كان جلدها الرقيق جداً يجعلها أقرب إلى الهيكل العظمي، لكن شعرها وثيابها يقرّبانها من هيئة فتاة ميّتة. بقيت راكعاً على ركبتيّ قبالتها لا أقوى على الحركة. أشعر بحريق في عينيّ لشدة تحديقي فيها. أغمضهما وأفتحهما وأتنفّس بتؤدة حتى لا أفسد الهواء الراكد... لا أدري كيف ذكّرتني هذه الفتاة بشمسة. حبيبتي شمسة التي لم أرها منذ وقت طويل، ولا أدري ما حلّ بها. لا أدري كيف ذكّرتني بها وهي لا تشبهها في شيء أبداً. لا في القدّ ولا في طول الشعر ولا... ربما لأنها متربّعة في مكانها، مثلها، منتصبة الجذع تنظر مباشرة في وجهي ولو بعينين مغمضتين، ربما لهذا ذكرتني بشمسة.

بقيت راكعاً على ركبتيّ قبالتها وقتاً طويلاً لا بدّ إذ شعرت بالبرد يجمّد أطرافي، وبضعف رؤية انتبهتُ له كأنْ فجأة. وعاودني إحساسي بالورطة التي أنا فيها، فاستعجلت نفسي على التفكير بالخروج قبل هبوط الظلمة الكاملة على المكان... وكان لا خيار أمامي سوى الاتجاه صوب الضوء الشحيح، إذ لم أجد ما أستطيع العودة به إلى كوّة مار جرجس.

وأنا أسير باتجاه الضوء مسرعاً قدر ما أستطيع، أقع حيناً وأتعثّر أحياناً كثيرة، تبيّن لي أنّ في طريقي أشكالاً من الحجارة غير مألوفة وغير منتظمة، لكني لم أتمهّل لتبيانها بسبب ما كان يعتريني من قلق وخوف من البقاء تحت الأرض. وسرعان ما استطعت الوصول إلى مصدر الضوء الذي كانت تغطّيه أعشاب كثيرة... وبيسر استطعت التسلّق إلى الفتحة فأبعدت الأعشاب وخرجت...

كان المغيب لم يحلّ بعد... مشيت أنفض التراب عن جسمي وأنظر متلفّتاً في ما حولي لأعرف أين أنا... لم أكن في ساحة أو فراغ لأتمكّن من رصد مكاني... كنت في ما يشبه الأزقّة الصغيرة الضيقة المتقاطعة... بقيت أسير فيها بصعوبة بالغة لاشتداد سيقان الشجيرات ولتراكم الحجارة، التي ولو صغيرة أحياناً، أقامت ما يشبه الحواجز الترابية التي رصّتها مياه الأمطار. ومن على إحداها قطفت ثماراً من البندورة البعل الطيبة، أكلتها بشهية وتابعت سيري حتى عرفت أني في سوق النورية بعد أن تأكّدت من وجودي في ما يشبه الساحة الصغيرة أمام كنيسة النورية... تنهّدت عميقاً وشعرت بالراحة... نسيت أمر الفتاة في الجرّة الكبيرة وقلت لنفسي ها أنا على أطراف الأسواق الصغيرة التي كنت أعدُّ النفس وأمنّيها بزيارتها واستكشافها... وسأعود إليها إذن قريباً. تابعت سيري في سوق سرسق والتففت باتجاه جامع منصور عساف. قلت عليّ الآن، بحسب ما أذكر، أن أقطع شارع حسين الأحدب الذي يوصل في نهايته إلى ساحة النجمة، أن أقطعه بالعرض لأصل إلى الجامع العمري فشارع فيغان فالبيت...

لكني تهت.

تهت وهدّني التعب. بدل ساحة الجامع العمري وجدتني مجدداً على مقربة من درج خان البيض وسوق أبو النصر... جلست أسترجع أنفاسي على حافة حائط منهار... قلت لنفسي إن التوتر والخوف يمنعاني من التفكير برويّة... قلت لنفسي: ممّ أنت خائف الآن... ما الذي يستدعي الخوف... ما الذي يستدعي الخوف؟ لا بدّ أن ساحة السمك ورائي... ثم سوق الصاغة، ومنه أخرج إلى جهة حلويات الحلاّب أو بن عازار، ثم أنزل ساحة الشهداء باتجاه الريڤولي، وبدقائق أكون في البيت... ممّ أنت خائف والليل ما زال متمهّلاً؟

أتراني خفت بالحدس... أتراني خفت قبل أن أعرف مصدر خوفي... هل سمعت مصدر خوفي هذا قبل أن تلتقطه أذناي؟

لا يمكن أن يكون ما سمعته، كأنه فجأةً نبت من الفراغ، عواء كلاب. لا يمكن أن يكون كذلك، إذ لم ألتقِ كلباً واحداً طيلة حياتي هنا...

ارتفع العواء حاداً قوياً ودخل رأسي وملأه رعباً بثانية واحدة... ليس عواء كلاب، كنت أردّد في نفسي، وأنا أبحث عن مكان أختبئ فيه، وشعر رأسي منتصبٌ كشوك القنفذ تؤلمني منابتُه. ليس عواء كلاب... بصقت على كفّي لأرى اتجاه الريح فلا أقف في مجرى يحمل رائحتي إليها. لم يكن ذلك سهلاً وأنا في مكاني المنغلقة منافذُهُ كمتاهة. لن ينفعني أن أفرك جلدي بالحشائش للتمويه. لا بدّ من اعتلاء سطح عال أو شجرة، أو الاحتماء بتجويف ما أستطيع سدّ فتحته عليّ...

وجدت نفسي أقفز بخفة الريح فوق الحجارة، أتعلّق بأشلاف الحديد وحوافي النوافذ المبقورة وأصبح بعيداً عن الأرض... في مستوى رأس نخلة صغيرة. هناك انبطحت على ما تبقّى من أرض شرفة صغيرة تطلّ على ملتقى من الأزقة الضيّقة خلفُهُ ساحة سوق السمك. تقدّمت برأسي من بين شجيرات الخنشار ورأيت القطيع.

لم أستطع أن أتبيّن عدد الكلاب وهي تركض، تظهر وتختفي بين الأزقّة، لكنها ما لبثت أن تجمّعت في الساحة الصغيرة في معركة ضارية انتهت إلى جندلة اثنين منها بلا حراك... وبعد أن تحوّل العواء إلى ما يشبه خوار الثيران، رأيت أكبرها جسماً يجرّ كومة بشدقيه يبدأ بنهشها، ثم يلحق به الآخرون، ولا يزيد عددُهم عن العشرة، على ما أرى من مكاني.

إنها ذئاب قلت لنفسي وأنا أحسب أنها تنهش جثة أحدها ممن سقط في المعركة... لكنّ الرأس الذي تدحرج بعيداً صوبي لم يكن رأس كلب بل رأس آدمي...

رأس آدمي... إنه رأس آدمي! كنت أردّد بصوت يكاد يكون مسموعاً... يا الله... من أين أتوا بجثّة آدمي!

كانت تمطر بغزارة حين زحفت على بطني إلى الداخل وارتميت هناك. لم أدر كم بقيت من الوقت دون حراك كالمغمى عليّ. قلت أقضي الليلة في مكاني هنا، فأنا ميت لا محالة يوم غد. الكلاب أو البشر. أو أبقى هنا حتى أموت جوعاً.

قضيت الليل أفكّر. لم أنم لحظة واحدة. كنت مبلولاً حتى نخاع عظامي ورأسي يلتهب ناراً. فكرت بالمضيّ قدماً منذ ساعات الفجر الأولى إلى السواتر الأقرب إليّ على أطراف وسط البلد والصراخ بالصوت العالي للبشر القابعين خلفها... خذوني من هنا سأقول لهم وأنا أسير باتجاههم. سيفتحون لي منفذاً أو يرمونني بالرصاص حالما يرقبون شيئاً يتحرك وربما قبل سماع صوتي... فهم على ما سمعت يلغّمون الكلاب ويفلتونها على الأطراف حتى يطلق عليها القناص من الجهة المقابلة فتنفجر لجهته... هذه تقنيات قديمة لا بدّ أقلعوا عنها إذ لم أسمع في الجوار صوت انفجار واحد... لكني، لن يمكنني التوجه إلى الأطراف غداً إذ هم الآن منشغلون بالمعارك التي تصلني أصداؤها عنيفة منذ عدة أيام.

كلّ هذا هراء... كلّ هذا هراء... لن أجرؤ على شيء وسأبقى في عليّتي هذه حتى مماتي... لن أعود أبداً إلى حياتي الهانئة، إلى جنّتي... ستموت حديقتي ولن أودّع قماشي وبيتي... عند بزوغ خيوط الفجر الأولى عدت إلى الشرفة أسترقّ النظر إلى الخارج... كان سلام كبير يخيّم على كلّ شيء من حولي. كنت أسمع بوضوح زقزقة العصافير... ورغم السماء الغائمة بدا لي واضحاً خلوّ الساحة والأزقة تحتي من الكلاب ومن أثر معاركها ليل أمس... لم أرَ لا جثّتي الكلبين ولا رأس الآدمي...

رحت أتساءل عمّا إذا كان كلّ ما رأيته أمس من أضغاث أحلامي أو بفعل الحرارة التي ألهبت رأسي. قلت إني لا بدّ مريض... وقد توهّمت في هلوساتي أشياء لا أساس لها، إلاّ أني بقيت أتساءل حول سبب تسلّقي هذا البناء المنهار إذن، وخمّنت أن الحمّى أصابتني قبل المغيب وسيطرتْ على أفكاري وجسمي وحملتني في الهذيان إلى هنا...

كان في حلقي طعم معدن صدئ وأنا أنزل من مخبأي العالي إلى الأرض... تذكرت البندورة البعل التي أكلتها أمس وقلت لنفسي إنها ربما تكون مسمومة... لكن من أين يأتيها السمّ ولم يروها سوى ماء الأمطار...

رحت أمشي بلا تخطيط لاتجاهي، فوصلت دون عناء إلى شارع الجامع العمري. جلست هناك لأريح مفاصلي قليلاً مؤكداً لنفسي أني مريض، وأنّ سبب وهني هو حرارتي التي لا بدّ ستعاود الإرتفاع. عدت أشعر برجفات البرد تنتابني... يجب أن آكل، قلت في نفسي، ورحت أجمع من حولي البزّاق الذي سأنقعه بعد قليل بماء البحر وآكله ثم أشرب نقوع الخاتميّة. تذكرت شقباني وكلّ ما تركت بداخله في كنيسة مار جرجس... وتذكرت الفتاة في الخابية... وأنا على زاوية الأوزاعي، رحت أجدّ السير قبل أن يشتدّ هطول المطر وأنا أفكّر بالكتّان... أفكر بقوة الكتّان الذي ينتظرني في بيتي لألتفّ به دون غيره، ألتفّ به فيداويني، أدفأ وأبرأ... وأتذكّر كتّان شمسة.



هل أغرمت بشمسة من أجل كتّانها؟

حين تركتْ قطن عمرها الصغير، طفولتها الناعمة الدافئة الأليفة لترتدي الكتّان. لترتدي الكتّان وتضيف إليه غواية المخمل دخيلةً عليه وفي أوّلها.

قالت لي ذات مساء غداً سأذهب إلى أمي وأقضي عيد النيروز عند أهلي لأعود بعد غد. وحين لاحظتْ تعجّبي لمبيتها بين أهلها في يوم هو ليس الأحد، وهي تعلم أني إذّاك سأكون مضطراً لترك المحل وملازمة أمي في البيت، ضحكتْ ضحكة صغيرة وقالت لي... لقد كبرتُ الان ولن يتركني أهلي أبيت الليل هنا. صار عليّ أن أعود إليهم كلّ مساء.

فهمتُ أن شمسة التحقت بدورة القمر وبالعادة الشهرية وقافلة النساء. كيف لم أنتبه لتفتّح جسمها تحت قطنه الفضفاض، لم أشتمّ روائحها الجديدة. كنت فقط أراها تكتنز وتفور، يكبر جسمها وتسمن... ألحظ أحياناً رجرجة مؤخرتها تحت جدّيلتيها الطويلتين الغليظتين حين تنهض عن الأرض فجأة، وتسير مُسرعة حافية القدمين. ألحظ ذلك فأبتسم ثم أنسى.

أمي ستعطيني غداً «الجابيس» أي جهازي. ستتزوجين يا شمسة، سألتها... ضحكت وقالت لا... ليس الآن، لكني سألبس أشياء جميلة، مختلفة من الآن فصاعداً، وأجملها تخبّئه أمي في صندوق الجابيس حتى فرحي... سأمرّ غداً وأريك وأمك أشياء إن سمحت أمي.

ظهر اليوم التالي فتحتُ الباب فدخلت شمسة. انخلع قلبي انخلاعاً حين رأيتها. حتّى أمي راحت تتأتئ والحساء يسيل من ذقنها. حتّى بيتنا القاتم الهواء دوماً راح يتوهّج بألوانها كأنه رفع سقفه كقبعة وألقاها بعيداً.

شمسٌ أنت يا شمسة.

نعم، قالت ضاحكة، فاسمي «هاتاوي» كما يدعوني أهلي ومعناها الشمس، وهذا ثوب جدّتي الذي حملته أمي معها منذ صغرها.

وراحت شمسة ترينا أثوابها وأرديتها الكثيرة. هذا شالي النبيذي، وهذه «التجيكيت» من الكتان الأحمر المبطّن باللبّاد الصوفي. هذا «البشتمال» المزهّر الأصفر أعقده كما المريول تحت «الفوتيه»، الزنار السميك الذي يقي كليتيّ ويحفظ حقويّ وصلبي من مغبّة الأحمال الثقيلة، وهذا فستاني «التيري» المشتعل الخضرة المشقوق في المقدمة وعلى الطرفين لتسهل خطواتي الواسعة في السهل... وتحت «الليلك» الزهري الذي يدفئ ضلوعي، انظرْ «إشليغي» الكتّاني الأبيض يهبط فوق «شلواري» الليلكي وكلساتي «الغوريك» من اللون نفسه... وفي قدميّ أرأيت «التشرك» الجلدي نخيطه بأنفسنا من الجلود.

أنظرْ ما أضعه على رأسي... «الفاس» أو الطربوش الأحمر، وهذا «البشلك» الفضي المزدان بالليرات... وفوق هذا كله أرمي مربّعات «البوشي» كل مربّع بلون، ألفّها كلّها حول صدغيّ وأترك واحدة أرميها مثل «الفيستشيت» أو الفيشة... لكنها أبداً لا تغطّي وجهي أو جديلتيّ.

وخرجت الأميرة هاتاوي بكامل أثوابها لم تترك شيئاً بين يديّ. كلّ هذه الأقمشة التي أعادت ارتداءها وسوّتها ولفّتها وربطتها قبل خروجها... كلّ هذه الألوان التي ألقت عليها شالها النبيذي و«فيستشيتها» البيضاء... كل هذا الكتّان وقليل المخمل. وخرجتْ. لم يبقَ شيء بين يديّ. لدهشتي وفرحي لم ألمس شيئاً... بقيت كفّاي مفتوحتين طيلة النهار، وعيناي دامعتين... وكلّ الليل تقلّبتُ في فراشي لا أنام منتظراً أن تعود شمسة صباح اليوم التالي ومقسماً في قرارة نفسي أن أختلق الحجج حتى لا أغادر البيت... حتى أبقى أطوف حولها، أشتمّ أقمشتها في هوائي، وأحاول لمسها... أحاول لمسها. كلّ الليل تقلّبتُ في فراشي والغصّة في حلقي... لا أريد الاستسلام لإرادة أهلها في استرجاعها كلّ مساء... سأجد أمراً ما، سبباً ما لإمساكها عن المبيت خارجاً... كيف سأطيق الليل فارغاً من شمسة، والصباح أيضاً. كيف لم ألقِ بالاً إلى نعمة وجودها في البيت كلّ المساء وكلّ الليل وفي الصباح. كيف لم أشعر بنعمة أنفاسها في نومها على مقربة، تُشيعُ رائحة العجين الطازج في نومي الجاهل، الجاحد. لم أنم.

استفاقت أمي في سريرها لتجدني جاهزاً منذ الفجر. غسلت وجهها وأسنانها الاصطناعية على مهل. مشّطتها وجدّلت شعرها. قدّمت لها الكعك والحليب. حملتها إلى الصالون وهوّأتُ غرفتها. جليتُ الصحون ومسحت الغبار. صبّنت المغسلة ورششت على وجهي ماء الكولونيا. شربت القهوة ثم غسلت الفناجين. أعدت أمي إلى سريرها، وأدرت لها فونوغرافها على أسطوانة تحبّها. ثم لففت كاحل قدمي اليسرى بقطعة شاش كبيرة. جلست في الكنبة محدّقاً في الفراغ، ورحت أنتظر.

ودخلت شمسة. أصابني ما يشبه الدوار وأنا أنهض لملاقاتها باسماً. قدمي تؤلمني ولن أذهب إلى المحلّ، قلت لها، وفي وقتي المتعطّل أرحتك من شغل البيت وفطور أمي. كيف أنت يا شمسة؟ ماذا تلبسين؟ هل حنّيت جدّيلتيك الشقراوين؟ ماذا تلبسين؟

كلّ هذا الكتّان لي؟... لي أنا. كل هذه الطبقات، التي أرى والتي أخمّن من شاش وخام لجروح قلبي... كتّان محارم الوداع، ومحارم دموع العشّاق. فرش مهدك وخام جهازك. أعطني ما ألمسه من كتّانك، وتمدّدي داخله، تحسّسيه على كامل جلدك. لا تنفري هكذا. أتركيني بقربك على الكنبة لأروي لك عن الكتّان ما لن يرويه لك أحد غيري. لأرويه وأروي جرح قلبي العاشق. فهل تضمّدينه؟

اسمعي:

عرف لابسو الكتّان الأوائل له حسنات شفائية عظيمة إذ لاحظوا، يا شمسة، أنه يساعد على ختم الجروح، واستعملوه دواءً لتقرّحات البرص. صار رمز الطهارة، وازداد أبيضه بياضاً وهو، وإن لم يُشفِ كافة تقرّحات الجلد، إلا أنه بقي الأقرب إليه وإلى التآخي مع حرارته. الكتّان حنون يا شمسة. المسيه والمسي يدي وسيداخلك حنان مماثل موجود لدى كلينا... أولم يجعل الناس شراشف أسرّتهم من كتّان... أولم ينتقوه لتغليف أجسادهم المتوترة لتهدأ عند نومها وكأنها في أذرعة الأمهات البعيدات... انزلقي قليلاً إلى جانبي. اقتربي واعطني أطرافاً من أرديتك واسمعي.

الكتّان ابن العناصر الأربعة، وجهات العالم الأربع أيضاً. من البلطيق إلى المتوسّط هو أقدم القماش وأكرمه. فمن الأرض تأخذ بذرته قوّتها. تبرعم في آذار وتُحصد النبتة في تموز. زهره السريع الزوال أزرق، ويميل حقل زهوره بعد ساعات قليلة من تفتّحه إلى الذهبي. وبعد خمسة أسابيع من إطلاق زهرتها تُحصد النبتة من منبت ساقها كالقمح. ومن بذورها علف للحيوان وزيوت ودهون. أليس كلّه خيراً؟

وبعد الأرض الماء حيث تُنقع السيقان حتى تتفلّش إلى ألياف، وبعد سبعة أسابيع تترك في المياه لون شمس المغيب... ثم تتفقّع تحت نار شمس الصيف لفصل اللحاء عن سيقان القنّب وقشره، وبعد أن يجفّ ويتلوّن بالأصهب أو الرمادي الأزرق يُضرب ويُدرس حتى استخراج الخيط من الليف...

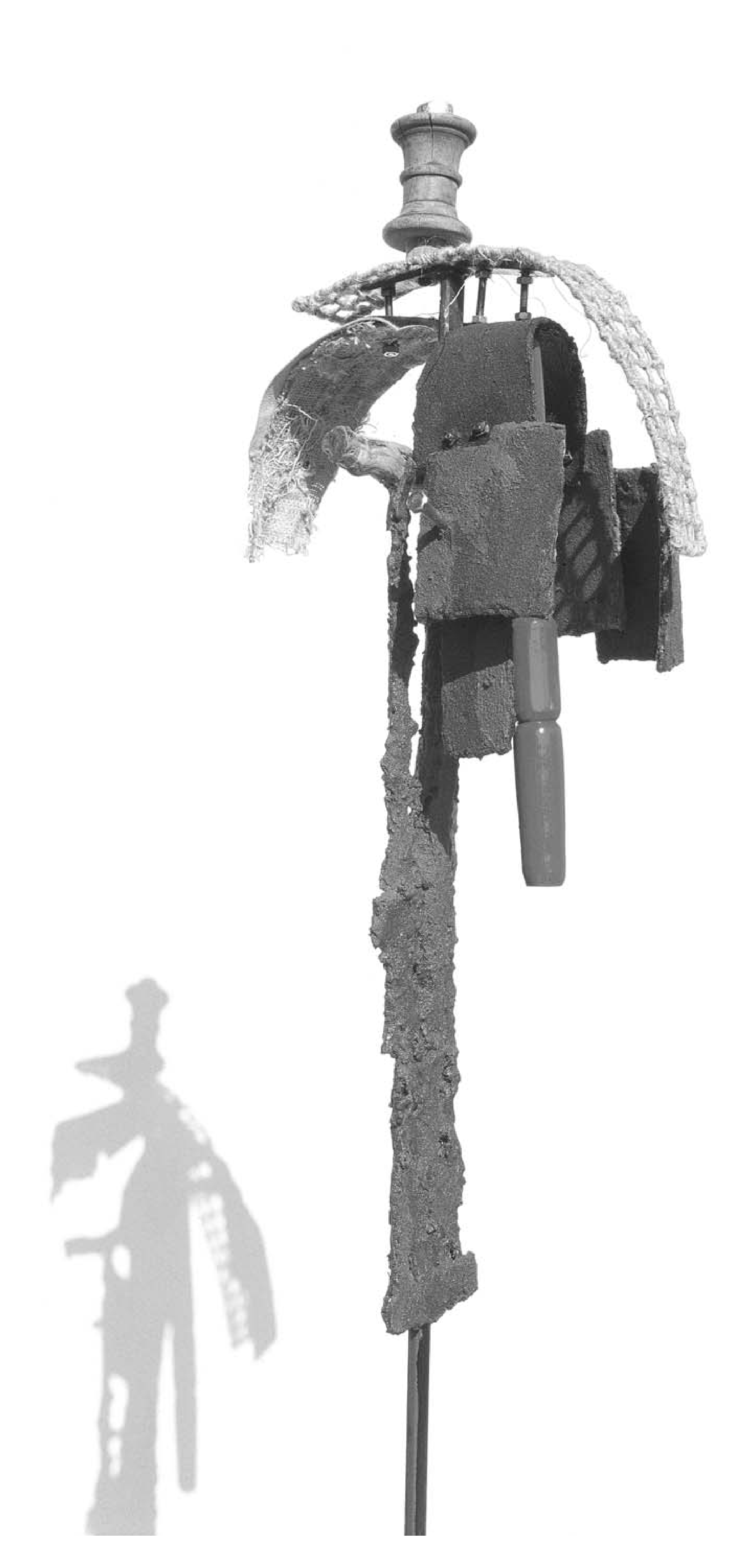
ومن عُذّب يا شمسة لا بد أن يُعذِّب فلا تعذّبيني. ليني كالخيط الذي غدا رهيفاً... رهيفاً حتى أن ضوء الشمس سرعان ما بات يلوّث أبيضه... لذا، وحتى يبقى نقياً ولا يصفرّ، كان يُغزل في الأقبية الرطبة ويُنقل شحوبه إلى أصابع البنات الرقيقة في الظلمة أو الفيء الدائم... لكن بياض الغازلة ما كان يضاهيه سوى بياض كتفي الامبراطورة الإسبانية «أوجيني» التي كانت أوّل من حوّل شال «الشانتيّي» المخرّم من الكتّان الأبيض إلى الكتّان الأسود... فأوجيني الذكيّة فضّلت ألاّ يقارن بياضُ كتفيها ببياض الكتّان المشغول في الأقبية الرطبة والمنقوع بكل «بوطاس» روسيا وبولونيا ومياه هارلم الهولندية المصفّاة... وحتى لا يربح الكتّان جعلته أسود، فاشتعل بياض كتفيها وغدا أسطورة... إلاّ الملكة الحقودة «ماري دي ميديسيس»... هي لم تستسلم... وقيل إنها بقيت حتى آخر يوم في حياتها ترتدي قمصان النوم من الكتّان الأبيض قائلة للملك إن جلدها أشدّ بياضاً، حتى جعلت كتّان النوم بذخاً خالصاً وهو لم يكن كذلك في ذاكرة القنّب...

فالكتّان كريم ومتواضع يا شمسة، ويشبهك كثيراً. أتركي اشليغك على جسمك لا تخلعيه. لا أريد سوى النظر إليك والكلام... أتعرفين أن الأكراد هم أوّل من حاكوا القنّب في هذه المنطقة؟ نعم قومك... وكان بلينيوس القديم يقول إن نسج الكتّان مشرّف حتى للرجال، لأنه انتصر على الصوف الرعوي، وصار البرابرة وحدهم بدو الأرض فيما راح الزارعون إلى تأسيس المدن... والكتّان صار كفن الميت الممدّد في القبر بعد أن كان يُلف بالجلود ويدفن في وضعية الجنين. هكذا... ولو بقيتم رعاة ممنوعين عن مدنكم.

وكتّانكم جاء في البدء من بلاد فارس كما روى لي أبي. ودخل مصر وحمله منها فيثاغورس إلى اليونان... وكونفوشيوس الحكيم الذي كان يهوى قراءة أشعار كتابه المفضل شي كينغ كان يتغنّى كما قصائد الكتاب بالرامي، وهو قنّب سيام الطويل الألياف...

لا تخجلي من عريك المترائي تحت الكتّان فهو يغطّيك ويسترك. لا تسمعي شهوتي في كلامي! اسمعي الحكاية فقط. ليسمع جلدك الكتان الذي أرويه حتى يلاقيني بعد ذلك فمك الساكت وعيناك الفزعتان.

منذ خمسة آلاف سنة قام الفراعنة، الذين علّمتهم إيزيس نسج الكتّان، وقدّموا هداياهم لها على شكل تماثيل صغيرة شعورها من ألياف القنّب للآلهة هاثور، قاموا بحياكة أشرعة مراكبهم التي أبحرت في النيل من الكتّان. أشرعة الحياة. ونسّاجُه في مصر من الأقباط ـ على ما روى جدي لأبي ـ شفيعهم مرقس الذي بشّر شعب مصر... وكان الأقباط يخافون بريق مدينة الاسكندرية، ويخشون استعبادهم في مصانعها الأمبراطورية... ولأنهم لم يتبعوا الكنيسة البيزنطية ويخضعوا لها، أقاموا في الأطراف المنسيّة من



أرض مصر واجدين في النسيج، في الغزل والفتل والكدن، استقلالهم ومقاومة سلميّة عزّزوها في تسلّق جبال الصعيد مثل شفعائهم مار انطونيوس ومار باكوم... كانوا لشدّة انكبابهم وإتقانهم يخرج كتّانهم خفيفاً جداً وخيطه رخواً، وقد يُدخلون الصوف على حواشيه لإثقاله ولتطريزه في الوقت نفسه...

ألم يقل حزقيال: ويكون لك كتان مصر الرقيق المشغول أغطيةً وأردية؟

والعرب وصلوا إلى مشاغل الأقباط من دمياط وحتى الدلتا، ومن هناك أخرجوا كتّان الأقباط المحبوك المسمّى بوكالمون والملوّن بألوان عظيمة الجمال كانت تتغيّر تبعاً للحرارة وساعات النهار وتُهدى للخلفاء الفاطميين... ومن كتّانهم الرقيق صنع أقباط مصر مجبرين ما سُمي في ما بعد بالقميص، وارتداه جنود الفرنجة تحت معادن دروعهم وقد شوتهم شمس دلتا النيل... ألم يُحص الدارسون مئة وثمانية خيوط مزدوجة في السنتمتر الواحد من كتان مصر الرقيق الفرعوني، أولم يقلّد عنهم الأقباط مزج الخيوط بدقيق بعض الحبوب لجعله منشّى وإبراز تخريمه...

مثلك الكتّان يا شمسة كريماً كان وباذخاً ضنّيناً في الوقت نفسه. مثل جسمك ممنوحاً دون عناء ومستعصياً في بهائه.

ألم يفكّ ملك فرنسا أسر أحد حلفائه الفرنجة نهاية القرن الرابع عشر من سلطان تركيا بإهداء الأخير قطعة من كتّان مدينة رينس الشهير... ألم يقل ذلك الملك نفسه إنه لا يخشى على أهل بلاد الفلاندر طالما بقيت لهم حقولهم لزراعة القنّب وأصابع لغزله وأذرع لنسجه، وطالما لم تُقطع أصابع الإبهام من أيدي الغازلات. وحتى نهاية القرن الأسبق سيبقى الكتّان غوى الملكة وخبز الغازلة إلى أن يجيء القطن محمولاً على ثورات نهاية القرن... سيجيء القطن بأسعار خفّضتها التجارة بقطعان العبيد السود، وستنحو المبادلات العالمية خاصة مع أميركا إلى تقوية القطن بالأسمدة والمبيدات التي أفسدت الأرض...

التخريم والتشبيك، التولا والغيبور... ودانتيلا خيط الكتّان بقي يجرّ أحلام أوجيني الإسبانية حتى بداية القرن الحالي... إلا أن ماكينات هذا القرن كانت قاسية سريعة وانقطع قلب الكتّان الذي لم يحتمل...

قميصك الكتّان الداخلي غال جداً يا شمسة يليق بكتفيك كثيراً... أما تخريمه فهل تعرفين أنه أتاك من عمق قبور مصر القديمة، أول هيروغليف الخيط على الخيط، أوّل ألواح الكتابة على الأردان، ولن ينتهي به الأمر لمزج الهواء والامتزاج به فعلاً سوى في مدينة البندقية... إذاك سيصبح الدانتيلا... وهذا أرويه لك في مرّة أخرى، وحين يحين وقتك ووقته.

هل أعجبتك يا شمسة حكاية الكتّان؟ الآن تعرفين ما تلبسين، يعرفه جسمك ويتقدّم فيه. يتقدّم في معرفة بدأناها معاً وسوف نتابعها معاً طالما أحببت ذلك. سيكون هذا سرّنا نحن الاثنين وسنسير فيه طالما أردت ذلك.

غال وجميل ويليق بك كثيراً قميصك الكتّان يا شمسة. هلاّ حللت عقدة الياقة وأبعدت شرائط الساتان عن جيدك العاجيّ؟... من حنّى لك شعرك الطويل حتى استحال أشقره ناراً هكذا؟...

لا، لا تُعطني ثدييك كاملين دفعة واحدة.

أكلّ هذا المدى لي... كلّ هذه المدينة المحصّنة القلب لي؟
أنا... ملكها الوحيد. ما فوق الأرض وما تحتها. منيع الأسوار كما لم يشعر ملك عليها من قبل... ومطلق الرغبات: أبني وأهدم أقيم وأنقض وأعود حين أرغب إلى قصري لأنتقي من القماش الخليلة التي أريد... الحانية الكريمة... الشبقة الرذلة... الواهمة المتعطّلة... الجاهلة الغانية... اللطيفة العادلة... الشاردة اللاهية عنّي...
كل هذا الكون لي يا أبي، كنت أقول بصوت مسموع وأنا أرفع صوتي بالغناء، تاركاً لساقيّ أن تركضا في أيّ اتجاه تريدان.
ذلك أني مع شقباني وعصاي الغليظة عرفت أني بتّ كالأنبياء: أسير حيث أريد وأرغب، للهوي واكتشافاتي وحكمة الأيام والليالي التي أستخلصها من دون خوف، بعد أن استتبّ لي الملك على هذه البقاع... لفترة طويلة.
فبعد أن مكثت أياماً طويلة في شرنقة من الكتّان أشرب نقوع الخاتمية والقصعين، برئت من الحمّى التي أصابتني، وقرّرت ذات صباح أن أعود إلى أزقّة الأسواق الصغيرة الموازية لساحة الشهداء. قلت لنفسي إني لن أتوه هذه المرّة إذ سأجعل علامات حيث أمرّ، وسأطلق أسماء جديدة على الأزقة أو الأسواق التي لن أتعرّف إليها. سأقيم في رأسي خارطة جديدة للأماكن التي تبدّلت كثيراً، وفقدت معالمها الأولى.
دخلت من ناحية سوق الصاغة حيث سبق أن حملت بعض الحجارة جعلت منها سوراً واطئاً لحديقتي يحميها من سيول الأمطار التي كانت جرفت قسماً منها في الشتاء. وسرعان ما تعرّفت إلى بقايا محلّ دبّوس للعطارة... وجدت فيه ثروة حقيقية. قلت لن أرجئ الأمر إلى حين إيابي، فربما اخترت طريقاً آخر للعودة. حللت شقباني وفلشته على الأرض، وأنا أضحك بأعلى الصوت وأصفّق.
كانت بعض بذور النبات والأزهار قد اخترقت أغلفتها الصغيرة ونبتت في الخفّان مساكب ولا أحلى... رحت أقتلع الجذور وأرتّبها في شقباني واعداً النفس بأن أجعل حديقتي ومصطبتي جنّة حقيقية في هذا الصيف الجميل... وبعد أن رفعت بعض الردم وجدت غالوناً زجاجياً من زيت الزيتون فتحته على عجل ورحت أشرب منه وأتلمّظ مفرقعاً بلساني... قلت إن كل شيء بات جاهزاً لإنارة أمسياتي لكني استبعدت أن أجد كبريتاً لاضاءة الفتيل... نسيت أسفي سريعاً حين وجدت، عند مدخل المحل العريض، شتلات صغيرة من الذرة نمت على بقايا قصبات كانت لا بدّ بالغة في الموسم الماضي... كانت الشتلات الصغيرة كثيرة العدد حين اقتلعتها... وفكرت فوراً بأنها ستكفي لإقامة ساتر حقيقي أمام بيتي ومصطبتي، ولرسم ضفّتي زقاق بين بيتي والبحر، إذا عرّجت به قليلاً من أمام جامع المجيدية.
وعدت نفسي بالعودة إلى محل دبّوس.
حملت شقباني على ظهري، ورحت أضرب الحشائش الصفراء بعصاي بقوّة لأترك علامات واضحة في الأمكنة التي أمرّ بها... وصلت إلى الساحة حيث احتميت من الكلاب ـ أو تهيّأ لي من الحمّى ـ وسمّيتها ساحة الكلاب ثم وصلت إلى سوق الخيّاطين. تعرّفت إليه حين وصلت كنيسة الكاثوليك، وخمّنت أني أصبحت الآن بمواجهة ساحة النجمة. وحين رفعت رأسي شاهدت الطرف الأعلى لساعة ساحة البرلمان التي تركت فجوة صدئة في رأس العمود الحجري. وخرجت إلى شارع المعرض وأنا أفكّر بالنزول حتى شارع ويغان ومنه إلى بيتي لأزرع الشتلات قبل أن تذبل؛ لكني غيّرت رأيي واتّجهت صوب جامع الأمير منذر وقلت، منه أصل إلى زاوية الأوزاعي، فأكون اتّخذت طريقاً جديدة قد أكتشف فيها أشياء ولقيّات أخرى.
خلف مجلس النوّاب وقبل تقاطعه مع شارع رياض الصلح تراءت لي أجمة من القصب، تقدّمت إليها فوجدت بركة من الماء النقيّ يغذّيها نبع صغير شربت منه حتى ارتويت. أنزلت شقباني عن ظهري، ورحت أرشه بالماء حتى تبقى جذور الشتلات والغرسات التي أحملها نضرة حيّة. وعلى حوافي البركة أخذت أصبّن يديّ ووجهي بحشيشة الزجاج كما كانت تدعوها خالتي وتخضّ بها داخل الإبريق الزجاجي فيلتمع رغم سخرية أمي... وخطر لي أن أستحمّ بالمرّة داخل البركة قبل أن يبترد جسمي وأنا قاعد أستريح، لكنّي قبل أن أشرع في ذلك رأيت عظمة بيضاء طويلة... اقتربت ومنها ورحت أقلّبها بقدمي متوجّساً... وسرعان ما تأكدتُ من أنها عظمة فخذ آدمي.
ما من شكّ في ذلك كنت أردّد لنفسي، وأنا أربط عقدة شقباني حول خصري... ما من شك في ذلك، أقول وأنا أسرع الخطى ثم أركض عائداً باتّجاه سوق سرسق الذي ما إن وصلته حتى ندمت ندماً عظيماً، ورحت أشتم نفسي وأشتم هذا اليوم الملعون، لأني لم أكن أركض باتجاه زاوية الأوزاعي فبيتي... ما الذي جعلني أهرب بالاتجاه المعاكس للبقعة التي أعرفها جيداً وأنا موقن من سلامتي فيها... أهو خوفي من جهلي لما تبقّى من مسافة لم يسبق أن قطعتها من ذلك المكان...؟
لم أعد على أعقابي باتجاه ساحة الكلاب فعظمة الآدمي دليل ساطع على أن ما رأيته تلك الليلة لم يكن من تهيّؤات الحمّى والهذيان...
ثم سمعت عواءً بعيداً. ركضت إلى فتحة الأرض التي خرجت منها بعد أن وقعت في قبو مار جرجس. استندت إلى عصاي وقفزت.
لن أترك شقباني هذه المرة، قلت لنفسي وأنا أرتاح موقناً أن الكلاب لن تستطيع اللحاق بي إلى هنا... فكرت أنه لن يكون عليّ سوى أن أعود في الدهاليز وعلى الأدراج الحجريّة لأصل إلى فتاة الجرّة... ومنها أتلمّس طريقي إلى أقبية مار جرجس، أخرج منها مستنداً هذه المرة إلى عصاي، ومن هناك أخرج إلى الفلاة التي أعرفها جيداً ولم يسبق أن رأيت فيها كلاباً، أنزل من أمام بن عازار أسير في عرض ساحة الشهداء إلى الريفولي فشارع فوش... وبحري بحري إلى بيتي.
رحت أفكّر كيف فاتني نباحها كلّ هذه المدة. كيف لم أسمعها. كيف لم تشمّ رائحتي وأنا أتجوّل ذهاباً وإياباً. أتراني اعتقدتُ نباحها آتياً من وراء الأسوار والسواتر؟ أتراها لا تتجوّل إلا بحسب مسار معيّن، في بقع من الأرض محدّدة لا تخرج منها... ومن أين أتت بهذا الآدمي...؟ أهو الآدمي نفسه الذي كانت تنهشه تلك الليلة المشؤومة أم أنه آدمي آخر؟ هل هي التي قتلته لتفترسه أم أنها سحبته جثةً من مكان ما على الأطراف...؟
يا إلهي يا إلهي، رحت أقول بصوت مرتفع وأسمع صدى صوتي في الهواء البارد الناشف تحت الأرض... يا إلهي يا مار جرجس، يا أمي... رحت أردّد وأنا أجدّ السير متلمساً الجدران والأرض بعصاي.
سرت أكثر مما خمّنت أنها المسافة حتى فتاة الجرّة. تهيّأ لي أنّ ما أتلمّسه حالياً ليس هو الدهليز نفسه. ثم سرعان ما اصطدمت بجدار ترابيّ، فرحت أبحث عن منفذ قبل عودتي على أعقابي. كانت هناك فتحة بحجم جسمي أو أوسع قليلاً. تردّدت قبل أن أنزلق ممدّداً فيها، ثم قرّرت أن أتقدّم ببطء كبير حتى لا أقع في حفرة كبيرة لن يكون باستطاعتي الخروج منها. كانت انحناءة الممرّ الضيّق تميل إلى أسفل. ما همّ، قلت في نفسي، فأنا أسيطر على الوضع وباستطاعتي الانزلاق بالاتجاه المعاكس ساعة أشاء... وبعد دقائق قليلة وجدت نفسي في ما يشبه الباحة الصغيرة... لم تكن مظلمة تماماً... أو تراني اعتدت الرؤية في العتمة كالخلد... لا، ليس تماماً. عرفت ذلك من كثافة الهواء ومن صدى الأصوات التي كنت أُصدرها... ولأنّ الدماغ لا يحتمل التعوّد على الأسود المطلق أو الاستسلامَ له طويلاً فيخترع صوره ويراها...
هكذا رأيت... باحةً مسوّرة بما يشبه السور الرخامي الأبيض... مفروشة بالنواويس الصغيرة والكبيرة... تلمّست السور وسرت بمحاذاته مستنداً إليه... وهو أفضى بي إلى باحة أخرى شبيهة، على مستوى أكثر انخفاضاً. الأصوات التي كنت أصدرها، أو تهيّؤاتي، جعلتني أرى أن ليس فيها نواويس بل أحجام منتصبة... لعلّها تماثيل أو مسلاّت صغيرة مزروعة في أرضها القاسية...
رحت أمشي، يقودني سحر العتمة الحالكة، وما أرى دون أن أرى، ما أرى بنور من وهم دماغي أو بنور الحجر الأبيض أو بنور حقيقي آتٍ من العالم الآخر فوق بطريقة أجهلها. رحت أتقدّم مسحوراً بذاكرتي عن كلام جدي لأبي: مدينة لا تتقدّم في الزمن بل تتعدّد وتتراكم، وتنخسف في الأرض العميقة كلّما ارتفع بنيانُها...
كم مدينة تحت المدينة يا أبي؟ يا جدي... كم مدينة للنسيان؟
أتراني أنزل في طبقاتها أم أخوّض وأغوص في طبقات وهمي؟ يا جدّي الذي أورثني عبث الحكمة، هل تعلّقتَ ولعاً بالقماش لأنه ما لن يبقى حين يبحث المنقّبون عن آثار اختفائنا؟ لأنه ليس الفخار ولا العظام ولا المعادن ولا الحجارة، فقط بعض الفحم والغبار، كبعض الغبار الذي ستتركه عضلة القلب. ولأن نسيجه ينقضي خفيفاً كحياة المدن الشبيهة بهذه، ولو أنه لا يترك مثلها أثراً في ترسّبات الأرض وتراكم طبقاتها، حين سيبحث المنقّبون المسرعون عن آثار اختفائنا. لكن سيّان يا جدّي: فالله قد أنعم علينا بالنظر القصير المدى... وأحياناً بالعتمة الحالكة.
عجبتُ من عدم إلحاح الخوف عليّ. لم أشعر بالخشية من الاستمرار في التقدّم والغوص. فككتُ شقباني عن ظهري الذي أثلجته رطوبةُ القماش المبلول، وحملته على كتفي. تذكرتُ الكلاب، لكني نسيتُ هروبي منها. لم أبالِ.

جلستُ في مكاني أرتاح من عناء المضيّ المضني في الظلمة الكثيفة. أغمضت عيني فصعد خدر قويّ إلى رأسي. تمدّدت وضعت ذراعي تحت رأسي، واستسلمت لنوم عميق.

حين استفقت كان الجوع يطحن معدتي. شربت جرعة من زيت الزيتون وأحكمت إغلاق سدادة الغالون عاقداً النيّة والعزم على عدم التخلّي عمّا غنمت به اليوم مهما كانت الظروف. أعدت إدخال طرف شقباني في مسكة الغالون ليسهل حمله. تمنطقت جيداً بالشقبان، وانتصبتُ واقفاً. قلت يجب أن أخرج الآن لأعود إلى بيتي قبل الليل، فأنا لا أعلم كم من الوقت دامت إغفاءتي ها هنا.

رحت أمشي بحذر مادّاً ذراعيّ لتلمّس الجدار. سرتُ على نحو دائري بضع خطوات قبل أن أشعر أن قدميّ تلامسان من جديد منخفضاً في الأرض. قلت لا... ما زلت أنزل في عمق الأرض إذن. عليّ أن أغيّر وجهتي إلى حيث أبدأ بالصعود باتجاه الخروج. استدرت أسير بالاتجاه المعاكس لكنّ الجدار بدا مسدوداً. غير معقول، قلت، يجب أن أجد المنفذ الذي منه دخلت. تساءلت ما إذا كانت إغفاءتي الطويلة هي السبب في نسياني واختلاط الاتجاهات عليّ: توقفتُ عن الدوران عبثاً في مكاني لأفكّر، وأُعمل المنطق فسمعت أصواتاً بعيدة. أصواتاً آدمية. أتراها أصوات آدميّة؟

كان لا بدّ لي، بأيّ حال، من السير منقاداً كأنْ رغماً عني إلى مصدر الحركة. مشدوداً بغواية الأصوات الآدمية التي ما عادت بعيدة وخائفاً خوفاً شديداً منها. قلت أجدّ السير إليها لأجد مخرجاً لكن لا أخرج في الحال. ألبثُ في مكاني على مقربة من الأرض، ثم أقرّر ما أفعله في حينه.

كان المشي باتجاه مصدر الأصوات سهلاً إلى حدّ كبير. أم تراه استنفاري العصبي واسترشادي بالسمع سهّلا لي ذلك. عرفت أني بتّ على مقربة لارتفاع حرارة الهواء وسريانه حيث أمرّ... وما لبثتْ عيناي أن تبيّنتا بعض النور الشحيح منعكساً على حوافي الجدران الواطئة البعيدة أمامي. أخذتُ أسير بسرعة فاتحاً فمي حتى لا يضلّل تنفّسي السريع من أنفي ما تلتقطه أذناي.

توقّفتُ في مكاني أصيخ السمع. متسمّراً جامداً كحجر. وصلني بوضوح ضجيج تكسّر الأمواج. أتراني وصلت إلى مقربة من الشاطئ. ثم قلت لا، إنه ضجيج أمواج عاتية تحمله الريح. هذا لا يعني أني على مقربة من الشاطئ بقدر ما يعني أن البحر هائج اليوم والريح ناشطة، رغم أن الفصل لا يزال صيفاً.

ثم سمعت هديراً قوياً جعل الأرض تهتزّ فوقي، والتراب ينهمر فوق رأسي. لم أتحرّك. بقيت متسمّراً جامداً في مكاني كحجر. هذا هدير لم أسمعه من قبل. هذا هدير غريب لم أسمعه من قبل. أتراني مشيت تحت الأرض لما وراء الأسوار؟ أتراني صرت في بلاد الحروب دون أن أدري...؟

كان مصدر الضوء والصوت غير بعيد فوقي. ارتجاج الأرض كان يسري بحسب سريان خطّ الهدير. إنها إذن دبابة أو مصفّحة... إني إذن خارج منطقتي. وعليّ أن أستدير وأعود على عقبيّ في الحال. في الحال... وقبل أن يكتشف الآدميون فوق الفتحة غير البعيدة عني. والأرض التي تحت الأرض.

متسمّراً جامداً كحجر تحت الفتحة غير البعيدة صاروخ كبير: نائم على جنبه كدلفين ميت؛ كامل وأملس ومنفوخ. وترابٌ فوقه. تراب فوقه والهدير على السطح.

كم مرّ عليّ من الوقت. الشمس لا تزال لم تغب. الهدير توقّف بعد أن ابتعد. لن يقع ردم على الصاروخ الذي لن ينفجر إذن.

ثم سمعت الأصوات. لغط. أصواتٌ آدمية ولغطُ آلات متقطّع. أصواتٌ آدمية معدنية. مهشّمة بذبذبة وتشويش. كلام غير مفهوم.

«لعزازل. ليهيشا إر. ليهيشا إر. كس إختا».

أتراها الحمّى من جديد. أتراها الحمّى تضرب رأسي كلّما دبّ الرعب في أوصالي.

«زيهيروت. زيهيروت. لولازوز. لولازوز. موكشيم. بن زنا ليهيشا إر».

ما الذي أسمعه؟ أية لغة؟ من يتكلّم فوق؟ أية شياطين؟ كم مشيت تحت الأرض لأصير في بلاد أخرى. أي شعب ملأ بلاد ما بعد الأسوار يقود فيها مصفحاته ذات الهدير؟

جامداً كحجر حتى ابتعدوا تماماً، واختفت أصواتهم والهدير واللغط المعدني.

لن أخرج من هنا. لن يغريني النور أو الصمت المطبق الذي عاد يرسل صوت تكسّر الأمواج الرتيب.

أغمضت عينيّ بقوة. مكثت كذلك دقائق طويلة حتى يسهل عليّ السير مجدداً في الظلمة. عدت على عقبيّ متلمّساً الجدران متفكّراً في ما سمعت من أصوات الآدميين الغريبة، وسرعان ما علمت أني اتخذت مسلكاً غير ذلك الذي قادني منذ قليل إلى مقربة من الشاطئ الذي كان يرسل أمواجاً يختلف صوت تكسّرها عن ذلك الذي أسمعه من بيتي حين تهدأ الحروب في بلاد الحروب.

وأنا أنحني لأزحف من فتحة في الجدار خمّنت أني ربما لم أته تماماً. ثم لاح لي الضوء الشحيح وبه استرشدت إلى الفسحة حيث فتاة الجرّة. قلت حسناً، سأخرج الآن من أرض مار جرجس بعد أن أستريح.

أنزلت شقباني عن ظهري واطمأنيت لرطوبة القماش. جلست قبالة الفتاة أتنفّس بعمق. لماذا، وأنا أُحدق النظر إلى فتاة الجرة، أشعر بكل هذه الطمأنينة ويذهب عني قلقي وخوفي. تنتظم أنفاسي وتتراخى مفاصلي ويصعد في رأسي خدر خفيف لذيذ.

أنظر إليها ويبدو لي أني أسأت تقدير عمرها في المرة السابقة. ليست فتاة. إنها إمرأة صغيرة. امرأة كأنها كبرت في غيابي، وفي غيابي قعدت في قدّها الصغير ليحويها نظري كاملةً متربّعةً أمامي. لي. مشت في ظلمة عمرها الصغير إلى ضوء عمر النساء، وانكشفت مستردّةً من الوقت اختصارَهُ وتقليصه الأحجام، الأجسام.

والوقتُ أيضاً... في الوقت القصير ما بين زيارتي الأولى والآن، سرى فيها نسغ الوقت وماؤه، فاستردّتْ كأنْ في عينيّ لحمها الطريّ.

أنظر إليها. أتنّفس عميقاً لكنّ الشهوة تضرب قلبي كطبل كبير ويتسارع دفقُ الدم إلى صدغيّ، فأسمع الضرب عنيفاً في هذا الصمت العميق.

أرى شمسة. أرى شمسة المرأة التي أينعت. أينعتْ شمسة، وتركتْ كتانها.

كبرت يا شمسة. تكبرين بأسرع مما تقدر عليه يداي... ممّا تلحق به أصابعي. أتركي الكتان يا شمسة وتعالي الآن إلى المخمل.

ضحكت شمسة وهي تفرد جدائلها الحمراء ولا تستحي من جسمها الكبير الذي كانت تستحي منه.

كان لحمها الأبيض يفيض بين يديّ وساعديّ. تكبر وتفور كالعجين المبارك ويكتسي فخذاها رائحة الفانيليا وإليتاها طعم البسكويت الهشّ، فيسيل ريقي بماء الورد المقطّر.

أنا سمينة...

لا. لست سمينة. أنت كبيرة وكثيرة. مُغدَقة كالنعمة حين ترضى السماء. مستديرة كدرّاقن العجم، السكريّ حتى نواته. تضحك شمسة وترنّ أساورُها الذهبية، فيرنّ قلبي. يمطر رنيناً وطحيناً على سهوب بطنها الثلجيّة.

رماد أبيض فوق الجمر الزهري جلدك يا شمسة. مشدودٌ لأرى... ليتراءى لي... لأنفخَ هواءً خفيفاً لا يحرك مخمل الرماد ولا يُطفئ زهرة الجمر الكامنة، المتربصة بجلدي. بكفّي البارد دوماً. بفمي الجائع والعطشان واللاهث. دوماً.

أنا سمينة، تقول شمسة، لأنّ لا بلاد لي. آكل ليكبر جسمي ولألقي وزنه بثبات على الأرض فيشعر بالأرض. فلشدّة ما مشينا حين غادرنا أرضنا كنت أسير كأني أتطاير. أسمن حتى أقيم وأشعر بالوطن. حتى يكبر حجمي ويشغل الهواء. لكي أستقرّ في كثافة ما، وأنزل في منزل لي.

تركتْ شمسة كتّانها حين تركت خجلها من عري جسمها، ومن عري حركتها في الضوء تحت عينيّ. تركت شمسة خجلها حين بدأت تتعلّم المخمل. أرويه لها طيلة النهار في بيتنا، وحتى حلول المساء حيث كان ينبغي عليها العودة والمبيت عند أهلها. لكنها تعلّمته أيضاً في أنوار الليل وفي ظلمته حين كانت المعارك الشديدة تجعل مبيتها عندي أمراً مقبولاً لدى أهلها رغم قصر المسافة إليهم.

لكني بدأت تعليم شمسة المخمل قبل بدء الحروب. وكنت حملت لها من المحل أجمل الأقمشة المخملية التي يحويها. قطعٌ كبيرة لا أطلعها عليها كلّها مرة واحدة... بل أجعل لها في كل حكاية، في كل درس، واحدة، فترتقي معي في المتعة ارتقاء المريد، تدرّب لذتها بالمعرفة والانكشاف والكشف. تصعد في حواسها درجة درجة، وتتعلّم أيضاً الكلام. تعلن رغبتها عالياً وتطلب الطاعة والانصياع. تعلّمني كيف أخدم حواسها وأتّبع الطريقة في جسمها. هكذا أيضاً كانت تفكّ أقفال ذاكرتها وتحكي لي عمّن تكون، عن قومها وأهلها وأرضها التي غادرتها.

كان أبي كهلاً حين اجتاز النهر، تقول شمسة.

من على ظهر بغلته المتعبة التي كانت تخبط في صخور الوعر قال لأمي لا. إن ما ترينه وهماً. تتوهّمين من ضباب الشتاء وغيمه الواطئ. فالبلاد التي نقصدها خضراء دوماً ونحن ما نزال دون حدودها الرحيمة.

غادر أبي مكرهاً مرتفعات «خربوت» وعشيرته «الهكّاري» التي ما عادت حصينة من أيام جدّي، وبعد أن بتنا شبيهين بـ«الغاميري» ـ أهل السهل ـ الذين كنا ندعوهم الأيتام أو الأبقار الميتّة والذين كانوا خدمنا ـ «الربيت» ـ لا رعيان أحرار مثلنا. رفض أبي الكهل تعيينه زعيماً من قبل الأتراك يدفع «الجرك» على «الكبشور»، أي يدفع الضرائب على الماشية، رفض أن يعمل أولام أو «بيغار» للدولة. رفض السخرة وأيضاً «الديس كيرازي». قال لا، نحن لا نؤوي أو نطعم الجنود العابرين رغماً عنا. لا نطيع أسياد العسكر.

جدّي، الذي كان يحب أبي أكثر من سائر أبنائه الكثيرين، كان يروي له ويردّد أنه مع الأمير أمين بديرخان وشريف باشا وعبد القادر شمدينان كانوا أول من أسّسوا صحيفة سمّوها كردستان، ومدرسة أيضاً. وبقيت الصحيفة تغيّر أسماءها بعد أن صارت سريّة حتى استقرّوا لها على «هاتاوي كرد» أي الشمس الكردية. هكذا أخبرتني أمي عن أبي وعن جدّي الشيخ العارف وأكده ابن عمي الدارس. ثم علقت الحرب، ومع دخول الأتراك معتركها راح جدي ورفاقه يطالبون بالاستقلال، فأمعن فيهم الأتراك تقتيلاً، ومن تبقّى هرب إلى البعيد حين احتلّ مصطفى كمال القسطنطينية، وصاروا يجتمعون في الخفاء لإعلان طلب الاستقلال، ووعدهم الكولونيل الإنكليزي في المخابرات البريطانية خيراً. كان اسمه الكولونيل بيل... لكنه كان كذّاباً... ومن اتفاق باريس مع الأرمن إلى اتفاق لوزان، بقي الأتراك والإنكليز يضحكون علينا وانتهى بنا الأمر إلى ما ترى، أحفظُ كلّ هذا وأكثر.

لسنا خداماً، تقول هاتاوي، فأقبّل أصابع قدميها. لكن جدّي لا يحب الحرب والتقتيل. وفي «الريمل» ـ الخيمة الكبيرة ـ حين أتاه الثائر الشيخ سعيد البيراني يعرض عليه الالتحاق والعشيرة بالثوار رفض جدي. لم تعجبه الشروط. قال إن الشيخ البيراني أرعن، به رغبة الانتقام والتقتيل، وفي عينيه قسوة سوداء. وحين أتى جدي ـ في الريمل نفسها ـ «الأغري داي» يعرض عليه عرضاً مماثلاً، بعد خمسة أعوام من عرض الشيخ البيراني، تمهّل جدّي قبل الردّ. كانت العشائر الكبيرة كلّها مجتمعة في المجلس. تكلّموا كثيراً وشربوا الشاي. خرجوا، وبالوا في الحشائش القريبة، وعادوا إلى الكلام. تناولوا العشاء واجمين، ثم وضعوا أمام جدّي خفّين لإعطاء جوابه الأخير كما كانت العادة، فانتعلهما وخرج من المجلس إلى خيمة «بيره»، أي فخذ العشيرة الذي ينتمي إليه. قال لهم كلاماً قليلاً، فهزّ الرجال رؤوسهم بالموافقة. إنهم لا يحبّون الحرب غير النظيفة، تلك التي تشبه «الكتشي» أي الثأر، ونام جدي ليلتها حزيناً في حضن زوجته.

كان ذلك قبل ثورة درسيم حيث شنق الأتراك كلّ زعماء العشائر الكرديّة. لكننا كنا آنذاك بعيدين، في هضاب ومرتفعات أخرى، حيث سار أبي بمن تبعه من الرجال وعوائلهم قبل أن تكتمل أيام «السين»، أي الحداد، على أبيه. وضع أبي أباه في «الغورستان»، وحفر في حجر القبر حفرةً صغيرة كي تشرب منها العصافير، وتترحّم على أبيه. وعلى الشاهدة رسم أبي رموزاً يعرفها، لأنه لم يكن يحسن الكتابة لحفر الآيات القرآنية. لم يكن أبي يعرف الكتابة أو القراءة على النحو الذي ينبغي رغم أن أباه كان تلميذ أبو محمد شنبكي وأحد أتباع أول من حصل على لقب تاج العارفين وهو أبو الوفا الحلواني. وبعد أن درس في كتاب كاميران بديرخان لتعليم الإسلام بالكردية، تعلّم أصول العربية أيضاً. لكن ابنه ـ أي أبي ـ لم يكن أبداً في مثل علم أبيه بسبب الحروب والثورات. وضع أبي جدي في القبر،، وقبل أن تكتمل أيام السين مشينا إلى أرض أخرى. حملت النساء الأطفال والبقج الخفيفة التي تحوي حليهنّ من «البرميرات» و«الملوانكات» لدرء أخطار العين الشريرة وسرنا نتبع «الديري»، نتبع القدر المخبوء لنا في السماء البعيدة، نردّد في قلوبنا غناء قوّالينا الحزين على وقع حوافر البغال البطيئة.

كان أبوك حزيناً جداً، تروي لي أمي. كنت أسبق النساء، وأرهق بغلتي حتى تصل إلى المقدمة قرب فرسه. يراني قريبة، فيشيح بوجهه ولا يكلّمني. يغور قلبي في ضلوعي وأحتار في ما عساي أفعل لأخفّف عنه، لأقول له حبي. أعرف حين لا ينظر ناحيتي بأنه ممنوع عليّ الكلام، أيّ كلام مهما كان. فلا يبقى لي غير الغناء، أغني له، قربه، وراءه، بصوت خفيض:

«من قرط أذني أصوغ له حدوة فرسه

أكسر أساور معصمي الغالية، يدقّها مسامير في الحافر الجميل

ومن جدائل شعري الطويل، لفرسه لجامٌ ولا أحلى

إيه يا قلبي... قلْ له ولفرسه ما لا أستطيع البوح به.

لعلّه يحنّ، لعلّه يرأف وينظر ناحيتي...»

بقينا أياماً نتبع الديري، تروي لي أمي، حتى وصلنا بقاعاً رؤوفة لنا ولماشيتنا. عشنا هناك سنوات هانئة منحتنا أكثر مما يأمل ويستأهل عبد الله الفقير. كان في تلك الأرض ماء وخير، وعشب لم يعرفه أهلنا، ولم تستطع جداتنا القديرات العارفات منحه أسماءه أو فضائله. نصحننا بالحذر والتروّي إزاء بعض ما كانت تُنبته تلك الأرض حتى جاء الشيخ بولدو. تقول أمي الشيخ بولدو ويقول لها ابن عمي فخرو الدارس في مدارس بيروت: اسمه الشيخ «ليوبولدو سولديني» يا عمّة، قرأتُ ذلك في كتاب وضعه قسّ فرنسي عن قومنا، فتبتسم أمي هازئة وتقول: أيعرف القس اسم الرجل أكثر منه، كنّا نناديه الشيخ بولدو، فيردّ علينا بطيبة خاطر، قل هذا لقسيسك الفرنسي يا فخرو المتكبّر الدارس في مدارس بيروت، يا فخرو الجميل وصاحب الدكّة الكبيرة في سوق الخضار والذي لم يتزوّج حتى الآن...

ما علينا، تقول أمي... جاءنا الشيخ بولدو وأقام بيننا حتى صار يتحدّث بلغتنا. قال لنا إن الأعشاب التي لا تعرفها جدّاتنا القديرات لا يُنبتها الجان بل الله الحيّ القيّوم. علّمنا الشيخ بولدو كيف نتطبّب بكل هذه الأعشاب، وحفظنا علمه كلّه قبل أن يترك أرضنا ليموت في «زاخو» التي قصدها بهدف السفر والعودة إلى بلاده البعيدة في أرض الفرنج... وفي «زاخو» له حتى الآن مقام يزوره المرضى من كل البقاع والأديان، ويشفى منهم كثيرون من رحمة روحه الطاهرة.

تقول لي شمسة إن ما تعرفه وعلّمتني إياه عن الأعشاب التي كانت تحمل لي منها كلّما وجدتْ بي حاجة وارتأت هو من علم الشيخ بولدو.

وتقول لي شمسة إنها امرأة عارفة: لست جاهلة ولو أني لم أذهب إلى مدارس بيروت. أعرف ما لا تعرفه أنت في أمور كثيرة. وما أزال أتعلّم وأفاجئك أليس كذلك؟

وتروي أمي ـ تقول شمسة ـ أنّا أقمنا في تلك البقاع سنوات طويلة هانئة منحتنا أكثر مما يأمل ويستأهل عبد الله الفقير. ورغم قوة باع أبي وصغر سنّ أمي، ونقوع حشيشة «البيروج» التي أحدثك عنها في ما بعد، لم يُنجبا أولاداً لكن أبي لم يتزوّج امرأة أخرى ولم يكن تعيساً لعدم إنجابه... كان سعيداً هانئاً في تلك الأرض البعيدة العالية حتى زاره ذات يوم نقشبندي كان في طريق عودته لزيارة أهله في أعالي كردستان التركية. وككل المسافرين، عنّ للنقشبندي كلام السمر وهو يشرب الشاي تحت قمر صيفيّ بدر.

قال النقشبندي: مولانا خالد الذي كان فقيراً من «قره داغ»، من قبيلة «دجفّ»، رأى في ما يرى النائم أنه، على طريق الكعبة، التقى درويشاً يعشّش القملُ في لحيته، فيقضي نهاره بين فقس القمل والصلاة. قال الدرويش لمولانا خالد اذهب من توّك إلى مدينة كبيرة في بلاد الهند تدعى دلهي. خلاصك هناك ولن تجده في مكان آخر أبداً... انتعل مولانا خالد خفّيه ومشى. وفي دلهي اهتدى إلى مدرسة الشيخ عبدالله بسهولة رغم عظم المدينة وكثرة ساكنيها. كأن ملاكاً أمسك بيده، وقاده إلى تكيّة الشيخ عبدالله الذي لقّنه طريقة الأخوية النقشبندية، وقال له: عد الآن إلى بلادك، أقمْ في السليمانية، وتلمذْ ناسك وقومك على ما تعلّمت...

لم يرحل المسافر النقشبندي في اليوم التالي، لم يحمل البقجة التي أعدّتها النساء له في الفجر. أمسكه أبي عن الرحيل، وأقام في أرضنا أياماً عديدة كان فيها ينتحي وأبي ناحية في الفلاة القريبة.

بعد سفر النقشبندي كان أبي يبقى ساكتاً ساهماً ساعات طويلة ـ تقول أمي ـ متأبطاً كتاباً تركه له المسافر وعنوانه «تنوير القلوب» يفتحه أبي الذي لا يحسن القراءة كما ينبغي، ويتحسّسه بيديه كالأعمى ثم يغلقه ويضعه تحت وسادته.

وذات مساء قال أبي لأمي إنهما لن يرزقا أولاداً إن لم يرحلوا عن تلك الأرض الخيّرة رغم خيرها. لكن عليه، قبل ذلك، السفر إلى أربيل ليزور قبر آخر الصوفيين الشيخ أمين الكردي الشافعي النقشبندي صاحب «تنوير القلوب». فهو سينوّر قلبه فيقرأ من توّه دون علم، وهو سيرشده إلى الأرض التي ينبغي أن يقيم فيها حتى لا يدركه تقتيل الجنود وشرّهم، وحتى يرزقه الله الخلفة الصالحة.

بقي أبي يصوم النهار ويصلّي ولا يقرب في الليل أمي، حتى سافر إلى أربيل وحيداً. غنّت له أمي موّالها باكيةً وهو يشدّ على فرسه السرج ومؤونة قليلة. ظلّت تبكي حرقة إليه كلّ مساء بين يدي حماتها العجوز التي كانت جاوزت المئة وفقدت البصر... أخذته البيري أيتها الأم... سرقته مني جنّيات الينابيع وهو لن يعود... فتمسّد العجوز على شعر أمي، وتروي لها عجائب الحكايات وأخبار العشاق المخلصين الغريبة حتى تغفو في حضنها كالأطفال.

في موسم وضع النعاج عاد أبي. لم يتعرّف إلى هيئته من بعيد سوى أمي. صرخت بلى، هذا فرسه أنظروا، هذا هو، رجلي. خلعت نعليها، رمت غطاء رأسها، حملت قربة الماء وركضت إليه. أمسكت باللجام، وقادت الفرس الهوينا إلى جرن مشربها أمام الخيمة، وساعدت الفارس المنهك في الترجّل عن مركوبه بتؤدة كأنه مريض. لفّت ذراعها حول خصره وذراعه حول رقبتها، وأسندت جسمه إلى وركها كأنه مخلّع. بقي الرجال واجمين في الخارج، ولم تنتبه النساء فتسارع إلى تسخين المياه إلا بعد أن صرخت أمي من داخل الخيمة.

لم يسأل أحد أمي في اليوم التالي لماذا لم تقصّ شعره وتحلق لحيته الطويلة قبل أن تحمّمه وتلبسه ثياباً نظيفة. كانوا يزورونه كلّ يوم لكن، حتى كبيرهم سناً لم يجرؤ في البدء على طرح الأسئلة... وذات يوم قال بعد أن تنحنح كثيراً: ليس الإنسان يا شيخ عشيرتنا مارا عزمان، ليس حيّه سمّاء يغيّر لونه وهيئته مثلها. الإنسان يا شيخ القوم ليس سحليّة، وله من حكمة ربه ما ليس لها منها، وله في مشيئته سبحانه ما لا نستطيع له الفهم أو التقدير... وبعد طول صمت قال أبي بعد أن تنحنح كثيراً... هو سبحانه في مشيئته يريد لنا كلّ الفهم وكلّ التقدير، فإن شئنا فتحنا العيون ورأينا. رأينا كلّ شيء ورأيناه حولنا في صنيعه.

وبعد أن ساد صمت كبير فسمع الرجال ثغاء النعاج من المراعي البعيدة قال أبي:

... واعلموا أن العالم كلّه ليس سوى مرآة لي. وأنّ في كلّ ذرة تشتعل آلاف الشموس... إن خرقتم قلب نقطة ماء واحدة هدر منها مئة محيط، تفحّصوا كلّ حبة رمل وستجدون فيها مئات البشر الآدميين. الحشرة الصغيرة تملك من القوائم ما يملك الفيل العظيم، ولقطرة المطر كلّ صفات نهر النيل الهادر. قلبُ حبّة القمح يماثل غلّة مئة حصيد وفي حبّة ذرة واحدة مخبوء عالمٌ كامل. كل شيء وأمر هو في نقطة الحاضر الدائرة. ومن كل نقطة في هذه الدائرة تخرج آلاف الأشكال. كلُّ نقطة في دورانها الدائري هي مرّةً دائرة ومرةً كرة تدور... العالم للعالم مرآة.

ظلّ ثغاء النعاج يتردّد في هواء الخيمة حتى تنحنح الأكبر سناً وقال بصوت مرتجف: علمُنا قليل يا شيخ القوم، وعلمك واسع جداً على عمائمنا المهترئة القماش.

هذا ليس علمي ـ قال أبي ـ إن كلامي مرآة لمرآة الشيخ محمود شبستري الايراني السعيد.

إروِ لنا من علمه المزيد ممّا عرفتَهُ في ربوع الأهل العارفين في أربيل، لعلّه سبحانه يرحمنا ويرأف بنا، قال الأكبر سناً. فنحن أصحاب ماشية والقارئون فينا قلائل.

ليس ما تعلّمته في أربيل هو حسن القراءة وفكّ الحروف. لكنكم هنا أمامي ولستم تسمعون ما أرويه لكم رغم أني لا أكتب حتى تضطروا لفكّ حروفي...

لعلّنا نسمع بالقصّ والأمثال، قال الأكبر سناً، فلا يُعيب علينا أولادُنا انغلاقَ العقول.

اسمعوا إذن قال أبي، اسمعوا من بعض ما أسمعني المردشون حين غيابي عنكم...

كانت النعاج والحملان سكتت عن الثغاء وباتت في مراقدها، فلم يعكّر صمتَ الرجال الثقيل سوى صوت تفقّع الحطب تحت قدور الحساء. لم يسمعوا في خيمتهم الكبيرة نشيجَ أمي الخفيض في حضن حماتها... إنه النقشبندي أيتها الأم... سرق مني رجلي حين مرّ الصيف الماضي في أرضنا... إنه النقشبندي اللعين.

تعرفين الآن أنه بات ينبغي علينا الرحيل، قال أبي لأمي بعد شهور قليلة... ليس بسبب ما يردّد رجال العشيرة عني، وهم جهلة منغلقو القلوب لا ينفع فيهم علمي، بل من أجل السفر إلى تلك الأرض الموعودة المباركة الدائمة الخضرة المحاذية للبحر. فقد تأكّد لي، وأنا في حضرة روح الشيخ الشافعي السعيد الذي نوّر قلبي، أن سوءاً كثيراً احتشد في هذه الأرض التي لن نرى فيها خلفاً صالحاً أو هناء، وأن تلك الموعودة ليست وعداً واهماً. قلّة من الرجال سترحل معنا عند استدارة القمر. سنحمل متاعنا والأم العجوز على بغلة واحدة، وسنقود خلفنا نصف حصتنا من رؤوس الماشية، ونترك النصف الآخر تعويضاً عن غيابنا.

لم تجرؤ أمي على الكلام أو الاعتراض. كانت تعرف أن أبي لن يطيق طويلاً ما يرويه أهل العشيرة عنه، لن يطيق قولهم إنه بات، في علمه الجديد، من اليزديين الكفار عبّاد إبليس والنار، أو أنه في أحسن الأحوال، بات من أولئك الذين تشيّعوا وأعلوا الإمام عليّ إلى النبوءة وسمّوا أنفسهم «أهلي حق». تبعوا زعيمهم مبارك شاه بابا خوشين في غيّه الذي خيّم حتى أرض العراق، وهو كان يعيش مع امرأة بالحرام ودون زواج، ويصطحبها مع رفاقه الرجال الستة، تعيش بينهم، ويُقال لهم جميعهم. إسمها فاطمة عود البان أو بيبي فاطمة، وهي أخت الشاعر الشهير بابا طاهر الحمدان الذي لم يسعَ لردعها إلى الطريق الصواب أو قتلها... كانت أمي تسمع كلّ ذلك من النساء، فلم تجرؤ على الكلام، أو الاعتراض على السير وراء وهم النبوءات. كانت تعرف أيضاً أنه لا ينبغي إن تعارض امرأةٌ رجلها إذا كان ضعيفاً في عشيرته، فكيف تفعل الآن وقد تشرذمت العشيرة نفسها، وضعفت.

غسلت أمي حماتها، وقمّطتها جيداً كالرضّع وكفّت عن البكاء. نامت الليلة الأخيرة قبل الرحيل في حضن أبي تروي له القصص الضاحكة، تلك التي تعرف أنها كانت تضحكه كثيراً، وغنّت له وقبّلت يديه، وفصوص خاتمه الفضّي حتى أغفى، وهو مبتسم الشفتين. وفي الفجر التالي قبّل أبي يدي الأكبر سناً وأكتاف الرجال، ولكز فرسه متقدماً قافلته الصغيرة. لم يلتفت مرة إلى الوراء، فلم تلتفت أمي. لم ينظر في وجهها قبل أن يصبحوا في الأرض السهل ثم يعبروا من بعدها النهر إلى الأرض الخضراء الموعودة المحاذية للبحر.

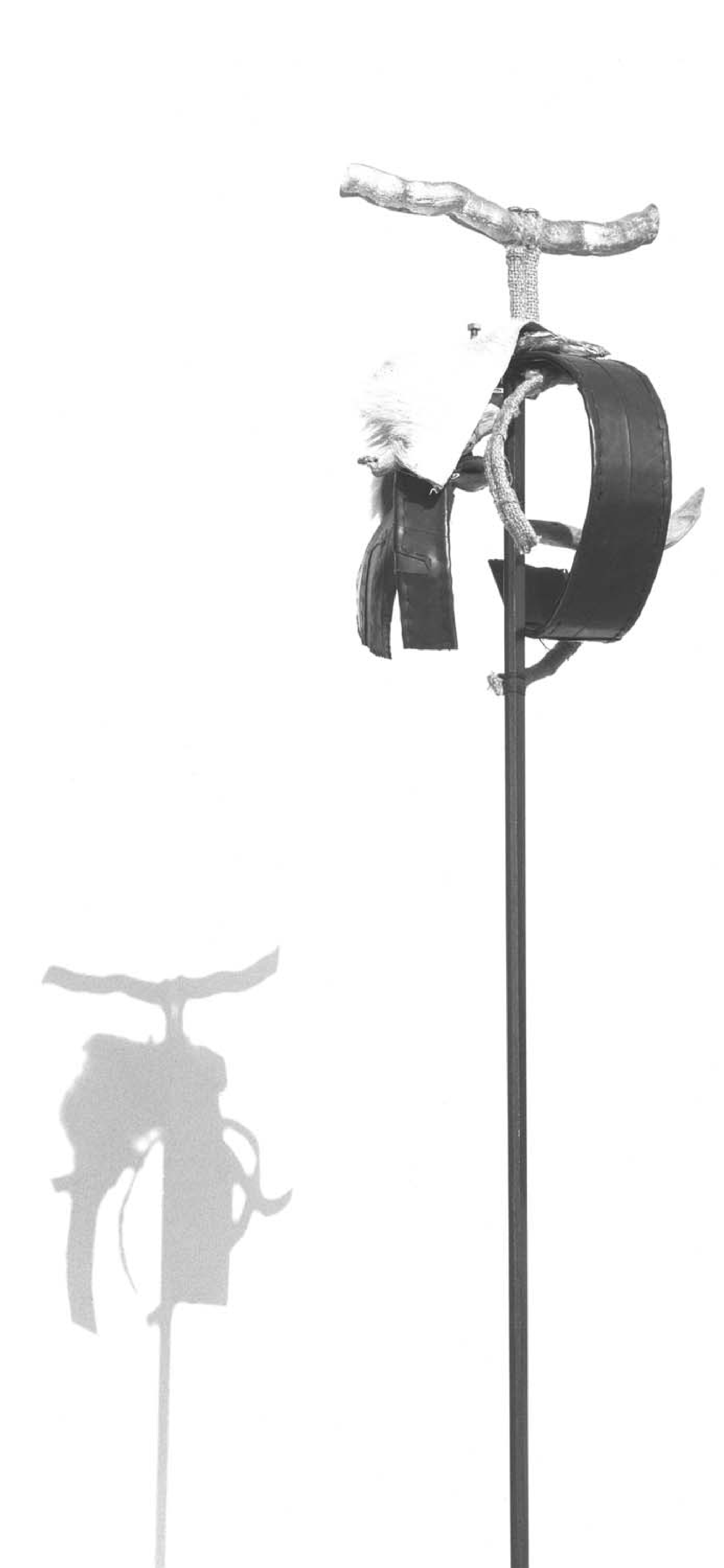
حزينة قصتك يا هاتاوي الجميلة. لا، قالت شمسة. ليست قصتي حزينة لأني لست في ما أرويه لك من حكاية أهلي. الآن أعرف أني في مكان آخر، في حكاية أخرى سابقة على تلك التي رويتُها وأحزنتك نهايتها... فبعد أن علّمتني المخمل ورويت لي حكايته، وفيها أني، كما رآني مسافرو ورحّالة الفرنج، عبدة جاهلة ترفل بفخامة مخملها، بفخامة جلدي الملتمع بشراسة شهوته كفراء السنوريّات المتوحشة، سأقول لك مكامن قوّتي الرقيقة، رقّتي القوية. أقول مخملي، أنا الكفّ التي تلبسني يد من حديد، كما شبّهت لي.

قولي يا هاتاوي الجميلة، قلت لشمسة.

ليس هذا اسمي، لست هاتاوي ولا شمسة. أنا «سرياش». الشمس بلغة أجدادي الكاسيين المتحدّرين من الجنّ.

أنا «سرياش» الجنّية. حفيدة إحدى الجميلات اللواتي بعث الملك سليمان في طلبهنّ غرباً: أربع مئة فتاة كنّ أجمل ما خلق الله للاستجابة لرغبات سليمان الملكيّة، لضجره الملكي إذ هو كان يأنف الحريم لمجرّد عبوره بين نسائه. فقد منحه الله حكمة ومعرفة تجعلانه يدخل المرأة بالنظر، فتغادره شهوته قبل أن تتعرّى في مخدعه. تأخذ بالذبول وبالترهل وهي لم تزل كاعباً في عمر البراعم. تنغلق على عطرها الذي لن يضوع في تجاهل الملك وانصرافه إلى نساء بعيدات آتيات إليه، معلّبات بأحلامه كالهدايا الثمنية التي لا تصل أبداً ولا تُفضّ.

أربع مئة فتاة كنّ أجمل ما خلق الله. كنّ جميلات إلى حدّ إيقاظ الجنّ داخل الأرض لدى عبور قافلتهن فوقها. هكذا استفاق أربع مئة جني ذكر كانوا تحت إمرة الشيطان «دجازاد» واستماحوه مراودة الفتيات الذاهبات إلى حريم الملك سليمان فسمح لهم «دجازاد» بما هو أكثر من المراودة، مدفوعاً بغيرته من مكانة الملك الحكيم لدى الخالق. واتّخذ الجنيون هيئات أمراء وسيمين، رافلين



بأجمل الأثواب قارئين أرقّ الأشعار، فسحروا قلوب الفتيات اللواتي نزلن عن مطيّاتهنّ، وسهرن الليل بطوله في عشق الفتيان حتى إذا أقبل الفجر، وجدن أنفسهن عاريات وحيدات في الفلاة...

حين وصولهنّ إلى القصر ووقوفهنّ في حضرة سليمان رأى الملك الحكيم دواخلهنّ. رأى أنهنّ لسن عذراوات. ولأنهنّ إذن لن يَلِقْن به كَرَدهُنّ وما في بطونهن إلى الفيافي والقفار، حيث كبرت بطونهن وخلّفن أكراداً.

لكنّ الأكراد لم يُدعوا كذلك لأن الملك سليمان كرد أمهاتهم بل لأن الكرد بالفارسية تعني البطل الصنديد. ويُقال إن أصل الكلمة، قبل تحريفها عبر السنين، هو «الكرغ» ومعناها الذئب، وقد تعني السنّور المتوحّش أيضاً... ذلك الذي يلبس فراء المخمل... ويشبهني.

وأقول لك أيضاً إن النساء هنّ من كان يقود هجمات الأكراد على سركون الأكدي الذي كان يرتعد خوفاً حين سماعه بلفظ كردي. ذلك أن سركون الأكدي كان يعرف، من رواية أجداده، أننا أبناء أمراء الجن، ربيبو النساء القويات اللواتي أقمن وحيدات في الفيافي قبل أن يعتلين المرتفعات الوعرة ويجاورن الجان أيضاً من أوراما إلى جبل جودي... هناك حيث توقّفت سفينة نوح في آخر أسفارها، وهناك حيث رسا، على قمة جبل «نيزير»، مركب جلجامش كقبّعة من ورق.

جنّيون أو ذئاب أو سنّور متوحش لأننا أشدّاء أقوياء وشجعان، نثير الذعر إذا أثار أحد فينا الخوف على حريتنا. لكننا لا نهوى الحرب أو التقتيل. فبعد أن هاجم أجدادي الكاسيّون أولاد حمورابي دخلوا بابل بسلام، وحكموها عشرة قرون وشيئاً فشيئاً تخلّوا عن ملكهم وعاشوا فيها عمّال بناء وساسة خيل وحرفيّين علّموا حرفيّي الفراعنة أموراً كثيرة. عاشوا بسلام حتى نسوا مبادئ القتال فهاجمهم الأشوريون. كسروهم ودخلوا إلى كل بلادهم، نهبوهم واستعبدوهم وسبوا نساءهم، إلى أن خرج منهم سركون الثاني، باني خرساباد، فأعتقهم ومشى بهم إلى الخابور أحد روافد الفرات. هناك، على الضفاف الواسعة تذكّروا من هم، واستعادوا بأسهم وولعهم بالحرية، صاروا رعياناً وأتقنوا المقارعة بالسلاح وفنون القتال، وكانوا أوّل من استعمل السهام النارية لإشاعة الذعر في قلوب من يقربهم.

منذ دمار نينوى قبل ولادة المسيح بأكثر من ست مئة سنة ونحن نعبد الحصان و«السرياش» والنبي محمد وحريتنا أينما حللنا في الأرض التي ليس لنا فيها أرض. منذ لقاء الجنّ بأمّهاتنا، في طريقهنّ إلى الملك سليمان الحكيم، وحتى الآن، أي حتى هذا العام ألفين وخمسمئة وسبعة وثمانين كردية ونحن نسكن في شجاعتنا وحريتنا، في وحشتنا وفي طيراننا الطليق فوق الأراضي المملوكة والحدود المسيّجة بالأوراق الثبوتية والجند، فكيف نكون خدمكم يا سيّدي ومخدومي؟ كيف نكون خدمكم؟ قالت سرياش هاتاوي شمسة المضيئة بضحكها العالي.

أعدْ لي رواية المخمل ثانية، قالت، فأنا أحبّ كثيراً أن أسمعها قبل أن تنتقل بي وأنتقل بك إلى درس آخر...

كيف كان يمكن وصف ذلك النهار! ـ

فالبارجة الكبيرة التي رست جنوباً، وبقيت عشرات الأيام تطلق كرياتها النارية على الجبال الصغيرة المقابلة، وتطير منها ثم تعود إليها أسرابُ الطائرات السريعة العصبية الحركة، قضّت عليّ مضجعي، إذ كانت السماء فوق رأسي مسرحاً لانفجارات هائلة الدويّ. حتى المطر كان يهطل رمادياً، فلم أستفد من تجميعه واختزانه، واضطررت في ما بعد لتنظيف كافة الأوعية الكبيرة التي اسودّت قيعانها.

ذلك النهار كان إلهياً في جماله المدهش. قلت لنفسي لعلّه مكوثي الطويل في بيتي، الذي لم أخرج منه سوى إلى المصطبة، جعلني أرى في انفجار هذا الربيع فرحاً لا يُحتمل. مشيت بين القصب والذرة التي زرعتها بين بيتي والبحر إلى الشاطئ وأنا متأكّد أن البارجة لم تعد هناك رغم استمرار الانفجارات التي رجعت بعيدة إلى حدّ ما. كان البحر واسعاً رائقاً مضيئاً إلى حدّ أن أزرقه بدا ذهبياً. سهل شاسع من الذهب. سهل من اشتعال الألوان كلّها في اللحظة نفسها.

كانت عيناي منبهرتين تماماً، حتّى أنّي ما عدت أتبيّن الحدّ الفاصل للأفق، ولا حدّ ابتداء الأرض اليابسة. لذا، حين رأيت ناراً في بداية جادة الافرنسيين، خلت ذلك من انبهاري. أغمضت عينيّ ولففت رأسي بقماش شقباني الفارغ، ثم عاودت النظر فتأكد لي أنّ ما أراه ناراً بالفعل. عدت ركضاً إلى بيتي وأنا أصيح كالمجنون فرحاً، وفي نيّتي أن أشعل فتيل مصباح الزيت الذي أعددته من زمان موعوداً بصدفة ما تُتمّ عليّ سعادتي بالنار والنور.

قبل أن أدخل شارع البيت رأيته: هكذا قبالتي، ناظراً إليّ ناشباً قوائمه في الأرض، ثابتاً دون حركة، مشدوداً متحفّزاً، يلتمع فراؤه الأبيض القصير تحت أشعّة الشمس العمودية القويّة. كان وحيداً. لم أسمع نباحاً. لم أر بقيّة القطيع. لم يكن هناك شجرة قربي، قوية باسقة أستطيع تسلّقها. لم أركض حتى لا يلحق بي كما كان حدث لي يوماً وأنا ولد. تذكرتُ أيضاً أن منظر الرجل الواقف يثير فزع الحيوانات المتوحّشة وعداوتها. نزلت إلى الأرض أستند إلى يديّ وركبتيّ، ورحت أدبّ على أربع متراجعاً إلى الخلف. ظللت أدبّ متراجعاً حتى اختفيت عن ناظريه. ثم رحت أنصت إن كان يتبعني فلم أسمع ما يُريب.

لم يتبقّ لي في كلّ الأحوال سوى أن أصل إلى النار في مكان ما قريب من جادة الإفرنسيين. احترت: هل أتّجه إليها عبر ركام المباني فأتسلقها إن لحق بي، أم أركض بمحاذاة البحر فيمكنني إذاك أن أراه في الفلاة، فأكون بمأمن المفاجأة، لكني سأبقى في مرمى قوائمه السريعة وشدقيه. قرّرت أن أركض بمحاذاة البحر لعدّة أسباب: أوّلها حاجتي لتبيّن مكان النار للوصول إليها بأسرع ما يمكن، وثانيها أني، في أسوإ الأحوال، وحتى لو لحق بي قطيعُه كلّه، أستطيع أن ألقي بنفسي في الماء وأبقى فيها حتى يغلبه الملل أو اليأس، أو ينسى أني مخلوق برّي صالح للافتراس.

هكذا فعلت. لم يلحق بي ولم أرَ له أثراً. كان مصدر الحريق قرميد بيت قديم ما زال يشتعل، لم يتبقّ منه سوى بعض حطب عواميده الثخينة، وربما كان ترمّد وانطفأ بكامله بعد ساعات قليلة. لم يكن سهلاً الوصول إلى تلك الأحطاب المشتعلة. ابتعدت عن بيت القرميد قليلاً، فوجدت خشبة سميكة ربما طارت من البيت نفسه حين انفجاره قبل أن يشتعل. وضعتها في أقرب الجمر حتى هبّت فيها النار فحملتها، ورحت أسير في طريق العودة فرحاناً فرحاً عارماً، غير آبه بالكلاب المتوحشة أو حتى بالذئاب وفي يدي ما أذود به عن نفسي، وأواجه به كلّ الأخطار.

وصلت مصطبتي، وأنا أطلق أصواتاً يحسبني من يسمعها أني مجنون تماماً. سوّيت فتيل مصباحي، وأعدت رصّ الطرف المضفور، غمسته جيداً بالزيت ثم أشعلته. أخذت أقفز في مكاني كالسعدان. قلت ما يهمّني من الآن فصاعداً؟ حتى لو نفد زيت الزيتون فإنّ أي دهن ينفع، حيواني أو نباتي. ناهيك عن الخروع والبلح، يطلق عصيرهما ما أردت من الزيت، يطفو فتجمعه بأيّ قماشة رقيقة وتخزّنه في الأوعية الكثيرة... من يقرب بيتي أو يقربني من الآن وصاعداً والنار في حوزتي؟

ساعات طويلة قعدت أنظر إلى الفتيل يشتعل. وفي المساء حملت حرامي الجوخ إلى المصطبة، وبعد أن أحطتُ السراج بتنكة دائرة تحميه من هبوب الرياح فينطفئ، تمدّدت بين زهوري وورودي آكل خسّة تهيّأ لي أن طعمها السكريّ ممزوج فعلاً بمسحوق السكر الأبيض... رحت أفكّر برائحة الشواء التي سأشتمها قريباً، رحت أتخيّل التصاق جلد السمك المشويّ على التنك الرقيق، وذوبان الدهن البطيء من إلية العصافير السمينة، وسيلان الدسم الزكيّ من أفخاذ الضفادع التي سأصطادها من البركة القريبة من ساحة البرلمان، والفرقعة الخفيضة التي سترسلها شحوم زيت الزيتون حين سأقلي الفطر الأبيض الشهي الذي لا بدّ ازدهر في زوايا سوق الصاغة بعد الشتوة الأخيرة.

كلّ هذه اللذّات علّمتني إياها شمسة. هي التي ربّت حليمات فمي لتُحسنَ التذوّق. كانت تقول لي إن الدهن هو نعمة المخلوقات التي حلّل الربّ لنا أكلها، وليست سقط الطبيعة ونفايتها كما كانت تقول أمي. فالدهن مُعدِّلُ حرارة أجسادنا وحافظها من عداء الخارج، وهو ذخيرة المرأة لاستقبال أجنّتها في مهد حوضها الشحمي الأبيض، وتجده في ماء الخصيتين الذي يفبرك الذكور الأشداء. أليست الأضحية والدهون المحروقة هي ما نرسل روائحه ودخانه لاسترضاء الآلهة منذ القديم؟

كان هذا في العهود القديمة يا شمسة، والدهن يضرّ بقلوب الرجال، أقول لها. لا، تجيبني شمسة ضاحكة وشحومها الزهرية المباركة تهتزّ تحت عينيّ وأنفي: لماذا تحرق أمك الزيت أمام صورة العذراء مريم كل مساء سبت؟ ألا تقدّم بذلك شحماً محروقاً لشفيعتها طالبةً الرحمة؟ ثم ان الدهن لا يضرّ بقلوب الرجال إلاّ إذا اجتمع بالسكّر. كُلْ قدر ما تريد من الدهون والشحوم لكن لا تُتبعه بالحلاوة... انتظر ساعتين أو ثلاثاً ثم كل الفاكهة أو الحلوى. هذا كلّ ما في الأمر. الدسم نعمة. والآن إفتح فمك. لا تمضغ بسرعة. أغمض عينيك. أترك الدسم يسيل ويملأ فمك قبل أن تقذف به إلى جوفك فتحقره في جهلك. أعطني لسانك، من فمك إلى فمي، قسماً ممّا مضغتَ فصار سائلاً. سنأكل معاً كأنّ لنا فماً واحداً. إرفع يديك عن وركيّ وأترك التذوّق لفمك وحده. أطفئ النور وتعالَ نأكل بعضنا. كُلْني.

يؤلمني قلبي في صدري حين أشتاقك إلى هذا الحدّ يا شمسة. حين يحضر جسمك في كافة أعضائي، ويلحّ عليها حتى الألم والوجع.

فتحت عينيّ حتى أبعد شمسة عن ذاكرتي قليلاً فرأيتُه. في الوضعيّة ذاتها على بعد عشرة أمتار تقريباً. ناشباً قوائمه في الأرض جامداً دون حراك ينظر إليّ.

يا إلهي...

بقفزتين اثنتين وصلت إلى مدخل الطابق السفلي. دلفت وصفقتُ البابَ الحديدي فوق رأسي.

حمار... كم أني حمار... بأذنين طويلتين كنخلتين. سأحتمي بالنار؟ كيف تهيّأ لي ذلك. هل خطر لي مثلاً في عقلي الصغير البليد أن الكلب سيقف منتظراً في مكانه حتى أحمل قطعة الحطب أضعها فوق فتيل السراج وآخذ وقتي إلى أن تشتعل جيداً ثم أهجم عليه ملوّحاً بها حتى يخاف ويبتعد...

حمار، يا إلهي كم أني أهبل. كم أني بليد الذهن، رحت أردّد وأنا أدور في مكاني... بقي يعوي في الخارج لأكثر من ساعة، ثم راح يُطلق عواء الذئاب الطويل، فترتعد فرائصي خوفاً ورعباً. قمت مرات عديدة إلى الفتحات الصغيرة التي جعلتها في أرض المصطبة، أي في سقف البيت، وسددتها جيداً بقطع الزجاج السميك التي حملتها من جامع منصور عساف ومحلات الحلاّب، كي يدخل منها ضوء النهار، وبالطبع لم أرَ شيئاً. كنت أفكّر بالسراج فوق، وأطمئنُ نفسي مردّداً أني لم أسمع صوت تخريب أو تحطيم.

كان هناك يعوي. يتوقّف قليلاً، يتجوّل في أرجاء المصطبة وفي الشارع ناحية الحديقة، ثم يعود إلى عوائه الطويل فأعود إلى تعنيف نفسي متخذاً قرارات حاسمة أنفّذها فجر الغد: أوّلها تقوية السياج بشرائط معدنيّة ثخينة، وثانيها إشعال النار بشكل دائم في حفرة، أو ما شابه، أجعلها على حدود المصطبة. لكن السياج لن يكون من الارتفاع بحيث يمنعه من القفز فوقه إلاّ إذا أعدت صناعته من جديد، ومن يضمن لي إذذاك الانتهاء منه قبل عودة الوحش. والنار المشتعلة بشكل دائم ليست حلاًّ على ذلك القدر من السهولة إذ سينبغي عليّ التجوال بعيداً لجمع الأخشاب والحطب اللازم.

يا إلهي... يا إلهي... لن أخرج من هنا. سأبقى مختبئاً أسبوعاً أو أكثر حتى ينساني. يملّ، ييأس من خروجي، يعرف أني أذكى منه بكثير، وأنه لن يقدر عليّ.

رحت أسترجع جمال هذا النهار الإستثنائي. أقول لنفسي إنه أكثر بهاءً ممّا ينبغي، ممّا يسمح الخالق لمتعة العبد. تلك المتعة التي إن تعدّت العيار الشرعي توجّب أن يَدفعَ العبدُ مقابلاً لها. كانت أمي إن ضحكت كثيراً اعتذرتْ إلى ربّها واستغفرتْ قائلةً اللّهم سماحك، أعطني خير هذا الضحك الكثير... أما إذا كان اليومُ يومَ جمعة ـ وهو يوم صلب المسيح وآلامه ـ منعت نفسها صراحة عن الضحك، وقالت غاضبة: هذا لا يجوز ـ اليوم يوم جمعة، ربّي لا تحاسبني...

رحت أسترجع جمال هذا النهار الاستثنائي الذي حُرمت اكتمال لذته وأفراحه، وأفكر بالقصاص الذي أنزله الرب بي لقاء ذلك كلّه. القصاص الذي يعوي فوق رأسي.

يومٌ يشبه لا بدّ ذلك اليوم الذي قيل فيه للطيّارَيْن الأميركيَيْن ألاّ يُلقيا القنبلة الذرية «ليتل بوي» ـ يقول أبي ساخراً لأبي عبد الكريم جارنا ـ إلاّ إذا كان الطقس جميلاً مشرقاً، والسماء زرقاء لا تشوبها غيمة.

ـ لماذا يا حاج، يسأل أبو عبد الكريم أبي العارف بمتعةٍ كبيرة تعوّض عن سوء أحوال السوق.

ـ لأن ما يريده الأميركان، يجيب أبي مفاخراً بذكائه، هو اختبار قوة تدمير القنبلة الحديثة الصنع

آنذاك، لا ربح الحرب كما قالوا. فاليابان لم تكن تملك طيراناً حديثاً بحيث يحلّق عالياً في السماء. اليابان كانت تريد الاستسلام لكن الأميركان، أرجأوا القبول بهذا الاستسلام لاختبار القنبلة، وأيضاً نكاية بالحلفاء وبخاصة ستالين.

ـ نكاية بالحلفاء، يسأل أبو عبد الكريم كيف ذلك يا حاج؟

ـ طبعاً، يقول أبي وقد علا افتخاره بذكائه. طبعاً نكاية بالحلفاء إذ كانت بدأت مرحلة تقاسم الغنائم، مرحلة ما بعد الحرب. كل واحد يريد أن يُري جاره أنه الأقوى، وإليه إذن يجب أن ترجع حصة الأسد من الغنائم، وإليه ترجع أيضاً قرارات القيادة والتسلطّ. وبخاصة نكاية بستالين الذي كان يفتل شاربيه حالماً بمدّ الجيش الأحمر حتى بلادنا...

ـ تبّاً لستالين والأحمر والشيوعية يقول أبو عبد الكريم.

ـ يومٌ يشبه لا بدّ ذلك اليوم. ثم أُضيفت إليه آلافُ الشموس التي اشتعلت في لحظة واحدة. أكبر قوس قزح متقلّب بملايين الألوان... كما اللحظة التي خلق فيها الربّ السماوات والأرض، لا بدّ... ثم المطر الأسود على الجثث المتبخّرة...

ثم غرقت التيتانيك. أقوى وأكبر باخرة في العالم. فقط لأن الطقس كان رائعا، الليلَ مشنشلاً بنجومه، البحرَ مستكيناً إلى زيته، الهواءَ راقداً في علبته السوداء. وإذن الإنسان ناسياً لاهياً واثقاً من استتباب الأمور لسيادته في النعمة. إذّاك يضربك ربّك الضربة القاضية. يرفعك عالياً ليضربك في الأرض الضربة التي هي الضربة.

ماذا أفعل الآن يا شمسة بغضب الرب، الذي مَثُلَ أمامي وأنا غارق فيك؟

عدْ إليّ، قالت شمسة. تعرَّ وتمدّد في المخمل. لنلتفّ به من كلّ الجهات، لتستعيدني فيك وتردّني إليك... تلصق جلدك في جلدي، في مسامه، حبكة حبكة، ليعلو الوبر بين السداة والحبكة كأني أقشعرّ عند أول اللمس.

عدْ إليّ وأخبرني المخمل، إرو لي كيف أني مخمليّة صرت.

المخمل، يا شمسة، هو البعث الثالث للقماش، أو أنه القماش ذو الأبعاد الثلاثة الذي بقي الإنسان متحيّراً في كيفية الوصول إليه حتى قرون خلتْ. كيف يقلّد البتلة، كيف يقلّد داخل ورقة تويج الورد والزهر، كيف يعيد إنتاج الفصل الأخير من جمال الكائنات... وحين عرف كيف يفعل اعتُبر ذلك أهمّ ما اخترعه البشر في تجميل القماش. كان الذهول كبيراً بمقدار ما كان الإنجاز بسيطاً. كان يكفي استعمال سُداتَيْن وإدخال سيخ يرفع عن الأصليّة ـ التي تحبك وتمتّن القماش في نيره ـ السداة الثانية إلى الهواء، تلك التي بعد قصّها ـ أو حلقها ـ ستكون الوبر المخملي.

ـ هكذا خرج السجّاد من البساط الصوفي.

ـ وهكذا انفتحت شهيّة النساجين على اللعب والخيال. وبدل السيخ الواحد بات هناك اثنان لإدخال الأشكال والرسومات والخطوط باللون نفسه أو بلون مختلف، وبتعقيد للخيط مختلف ومتنوّع أيضاً... والقطيفة، تلك التي تفخرين بجمالها على «اليليك» الذي تلبسين هي دخول المخمل على الدمقس، ملك الضوء والظل في اللون نفسه لمزيد من لعب الخيال، ولمزيد من الأضواء والظلال... حتى أنّ الفذلكة كانت تصل إلى استعمال ثلاثة آلاف ومئتي بكرة مثقلة بكلل من الرصاص ـ مكان الأسياخ بالطبع ـ وكان النسّاج لا ينجز أكثر من أربع سنتمترات صغيرة في اليوم.

والدمقس من هذه الأرض يا شمسة وكذلك أوّل أشكال القطيفة. من سجاد الفرس ـ كما قلت ـ إلى الأناضول العثمانية. وحتى غزو المغول بأمرة قائدهم تيمورلنك بقيت الأقمشة الأجمل تُصنع في الشام والأناضول لتنطلق بعدها إلى أسياد العالم كلّه دون أن يقدروا على فكّ ألغازها.

ذلك أنه، ومن قبل ولادة المسيح بمئات السنين، ومن فارس الساسانية إلى سورية البيزنطية ثم المسلمة، كان أمين سرّ القماشين والنُسّاج هو الوحيد الذي يملك الرسم واحتساب الألوان وعقد الخيوط يقود فريقه كما يقود رئيس فرقة المجدّفين سفينتهُ. وحده العارف وجهتها وخيط سيرها. وحده الحافظ عن ظهر قلب سرّ رداء ملك الملوك الفارسي مثلاً، وكيف ومتى ستعتلي الرداءَ الشمسُ أو الثور المجنّح. كان يتقن الرياضيات ليحسب ويهندس ويسيطر على لانهاية الخط والخيط.

نسّاجو سورية كانوا مراقبين من قبل الجواسيس، محاطين كصنّاع العملة، حتى أن قماشهم الثمين أُمّم لأكثر من حقبة طويلة، وحتى القرن التاسع. والرقابة البيزنطية كانت خانقة لدرجة أنهم صاروا يهربون إلى فارس أو يبيعون علمهم لكبار الملوك إن لم يقعوا في أسر هؤلاء، وذلك بعد أن خسرت زنوبيا حربَها واحتلّ «أردشير» الأول الساساني إنطاكية.

لكنّي سأعود إلى حكاية النسّاج فيما بعد.

المهم أن محمد الفاتح، سابع حكام الأمبراطورية العثمانية، هو من فتح عين ودرب شهوات الغرب حين فتح القسطنطينية أواسط القرن الخامس عشر. ذُهل أسياد الغرب حين رأوا رقيّ ذوقه وفخامة ما يلبس حتى أن أحد رسّاميهم الكبار ألبس القديس مار جرجس ـ أو الخضر ـ على الطريقة العثمليّة وكأنه أحد ضباط الباب العالي... أما مخمل لباس سليمان القانوني فقد جعل أهل فيينا يختنقون بفعل الغواية أكثر منه بفعل آثار الحصار الطويل الحزين تحت أمطار سماء النمسا. كان الغازي جميلاً، باهراً وخانقاً كمخمل لباسه، يترك في القلب كمداً وحسداً، يجعل في رحيله الشتائي عن برد الأسوار ما يشبه الأسف. كذلك الذي يتركه في قلب امرأة متمنّعة استسلامُ العاشق لتمنّعها ورحيله عنها. لذا، وبعد أن نزلت بذرة الرغبة عميقاً في الأحشاء، راح الرسامون يتمرّنون ويملأون صفحات الدفاتر تحدّياً لانعكاس الضوء في الوبر وتماوجه فيه على كبته ولجمه. دخل سليمان الرائع من أجمل باب أقيم في سور. وبقي هناك، في الخيال الملتهب، في صفحات أوّل ترجمات ألف ليلة وليلة حيث مخملٌ مرسوم بألوان عميقة ومتنوعة وقويّة، مطرّز بروائح تبغ النارجيلة وهال نهود النساء الصغيرات المستسلمات لأبخرة الشهوات، وأيضاً في كتب فلاسفة الأنوار تحيةً لبذخ الحرية، وأيضاً في موسيقى مستوحاة من السرايا وحفيف أقمشتها التي تشي وحدها بخطف الأذن إلى بحّة المخمل... وحين لم يعد مخمل المسلم مخيفاً سيذهب الرحالة الورعون إلى بلدان يمتزج فيها خيط الذهب بالمخمل لتشتعل الأخيلة كشموس المغيب على تلك البقاع، وسيرتدي النابوليون نفسه مخمله الأمبراطوري عند التتويج، ويستقبل الشعراء سامعيهم في مقاعد كأنها ملقاة على ضفاف البوسفور.

كلّ هذا المخمل وراءه أنتِ يا شمسة. صورتك. صورة المرأة الممتلئة بنعمة جسدها الفائض. العارفة الغاوية، الشهوانية الخطرة، المقموعة الممنوعة المتخيّلة في ضباب البخار، في ارتجاج الرغبات المحفوظة بجيوش الخصيان، والمكتومة كأصوات الكسولات الناعسات المتآمرات السريّات.

ـ يا ... كلّ هذا؟

ـ وأكثر يا شمسة، بما أني مهدّد بالخصي كلّما اقتربتُ منك، بما أني استيهامات رغباتي، ولخيالي أن يلعب كالريح في الساحات الفارغة لينقذ أعضائي الضعيفة الواهنة. ولأن بإمكان قشرة الدراقن المخملية أن تترك فيّ إبراً وأشواكاً قد تلهب جلدي حتى التقرّح. ألا يحصل هذا كثيراً مع خلق الله؟

ـ بلى، تقول شمسة ضاحكة، أكمل الحكاية.

ـ هذه حكاية لا تكتمل يا شمسة، لكنها قد تنقطع بشكل حزين...

يُطلّ حاكم البندقية التي ورثت القسطنطينية في مخملها وفي طرائز الذهب على ساحة القديس مرقس، يُطلّ بلباسه المخمل علامة استتبابه الرسمي في حكم المدينة، ينظر إلى أعلام العائلات السائدة فوق القصور ومن نوافذها، وقد صُنعت ودُبّجت من رمز ازدهارها واستعلائها على الممالك، أي من المخمل. يُطلّ معلناً بدء الشهور الستة حيث سيرتدي أهل المدينة الأقنعة لينصرفوا إلى مزاولة السياسة، سياستهم السرية الحافلة بالمكائد الخفيّة. حينها يلبس الساسة أثوابهم المخملية حين يمرّون في الشوارع كي يعرف الرائي أنهم من علّية القوم فيحفظ سلوكه وتُحفظ المقامات.

لكن قبل أن ينكسر عصيان المخمل واستعلاؤه، ليصبح في عصر انحطاط القماش مضلّعاً معلناً بدء الديمقراطية، وانتهاء عصر الامتيازات إلى زمن عبيد المعامل الكئيبة، كما يقول أبي، استطاع المخمل أن يحفظ شرف التقاليد حين بدأت عوالم الريف تغتني وتعي ثراءها وأهميتها لتواجه مجتمعات المدينة وقمعها. فقبل انهيار الامبراطورية العثمانية المؤسف صارت قطعة اللباس المخملي علامة الدخول إلى حياة البالغين المكتملة. «يليك» جدتك أي الصدار، الموشّى بخيوط الفضة وأزرارها، كان لا بدّ منه في ثياب العرس، رمزاً للقوة والاستعلاء عند الرجل، وللطاعة ونضج الجنس عند المرأة...

ـ كيف يقترن نضج الجنس بالطاعة، تقول شمسة، أهكذا تقول إني صرت مخملاً؟ وتلك العارفة الغاوية الشهوانية المتخيلة في ضباب البخار؟

ـ إنها هي نفسها يا شمسة. فالطاعة إنما هي لرغباتها، لشهوتها التي تقوّي جسد الرجل ليستعلي في نفسه، لا على امرأته. وليعلوها فتعلو شهوتها إلى القبة التي تريدها من قبب السماء فترفعه إليها.

لا يجدر بك، أيتها المخملية، التوقف إذن أبداً عند ظاهر الكلام وقشرته الأولى.

لقد اكتملت الآن ـ يا بتلة التويجة ـ اكتملت في معرفتك وفي جسدك وفي التأنيث... وليس بعد الاكتمال سوى العذاب، سوى التعذيب، سوى تعقيد الالتباس بين الحضور والغياب... ليس سوى الدانتيلا... ووجع قلبي.

لم يخرجني من جحري سوى الجوع.
قلت لن أموت هنا، وكلما أرجأت خروجي، هدّني الوهن أكثر فأكثر، وقوي الوحش عليّ.
قرّرت ألاّ أبتعد كثيراً... فقط ما يكفي لصنع حربة أو ما شابه، سلاحاً أردّه به عني لو هاجمني... أمّا لو كان مع قطيعه، فسيقضي الأمر بلحظات. لحظات ثم لا أشعر بشيء.
خرجت إلى المصطبة. كان السراج ما يزال مشتعلاً، فسارعت إلى ملئه بالزيت. قبل أن أتقدم إلى الحديقة، رحت أطلق أصواتاً لأرى إن كان على مقربة، لم أسمع عواءه ولا عواء الآخرين. لم أسمع أية حركة مريبة لكني لبثت وقتاً في مكاني لعلّه ينصب لي فخاً، يخرجني آمناً من مكاني، ثم يتصيّدني على أرضه التي لا بد سوّرها ببوله، وهو يحرس هواءها بخياشيمه القوية.
رحت أدبّ على أربع محاولاً بكلّ الحيطة اللازمة، أن أشتمّ أثراً لبوله لكن عبثاً. كنت أحاول بذلك معرفة ما إذا كان يعتبر تجواله في منطقتي تجوالاً في أرضه أو خروجاً إلى أرض غريبة.
عدت سريعاً إلى الحديقة. كنت خائفاً فلم أستطع ابتلاع حبة البندورة الوحيدة الحمراء التي قطفتها من بين الشتلات الذابلة... مررت بين الأثلام أرويها بالماء رغم أنها لم تكن ساعة سقاية في حمأة الشمس.
ثم خطرت لي فكرة أعجبتني. ملأتُ بطني ماء وجلستُ أنتظر أن تصل وتتكوّم في مبولتي. حملت عصاي وتمنطقت بشقباني. خرجت من سوق أياس إلى شارع اللنبي فشارع فيغان ومنه إلى الطرف الأعلى لشارع فوش. مررت من أمام محلات الشاورما قرب تيوفيل خوري، لكني صرفت النظر حالاً عن البحث فيها عن سكين أو أية آلة حادّة أجعلها في طرف عصاي، إذ كانت فارغة تماماً مكشوفة إلى الشارع.
رحت أجدّ السير حتى وصلت إلى الريفولي وأنا أتابع ما بدأته من مصطبة بيتي أي التبوّل بضع نقاط كل عشرين أو ثلاثين خطوة. لم يكن ذلك سهلاً أبداً لذا، بدل التوجّه صعوداً صوب كاراج الأحدب وحتى مقهى الباريزيانا فالمتروبول، قرّرت بما خمّنت أنه تبقّى في مبولتي، العودة سريعاً من شارع البيبلوس إلى شارع الصمدي فعبدالله بيهم، ثم شارع فخري بك، شارع طرابلس فالبيت. هكذا أكون حاولت على الأقل، وعلى سبيل التجربة، أن أسوّر دائرة تكون منطقتي، فأرى إن كان يدخلها، وإن كان باستطاعتنا نحن الاثنين أن نجد اصطلاحاً ما، ترميزاً ممكناً نبدأ منه تعايشنا بسلام في أرض الله الواسعة هذه.
لكني، قبل أن أستدير باتجاه البيبلوس، رأيتهم. كان هو على رأس القطيع، على بعد أمتار من المجموعة، يقطعون ساحة الشهداء بالعرض. توقّفوا أمام مبنى الدرك حيث لبثوا متقاربين ينظرون في كلّ الاتجاهات. اختبأت وراء ألواح خشب المعاكس المتناثر من أفيش فيلم «العاشقات» فوق رأسي ورحت أراقبهم، قلت إن تحركوا باتجاهي أطلق ساقيّ للريح.
كانوا يديرون الرؤوس في كلّ الاتجاهات، يشتمّون الهواء. قلت لعلّهم يشتمّون الآن رائحة بولي التي لا بدّ وصلت إليهم مع اتجاه الريح شرقاً من جهة البحر ورائي... وهم بالتالي سيقرّرون عدم التوجّه ناحيتي فاهمين أنّ لهذه القطعة من الأرض من يشغلها ويسود عليها.

كانوا أكثر عدداً مما رأيت ليلة الحمّى، أو تهيّأ لي من افتراسهم الأدمي في الأسواق الصغيرة لجهة المعرض. كلّهم في حجم واحد تقريباً. في حجم الذئاب البالغة، على ما كنت أراها في التلفزيون، أو يتهيأ لي ممّا سمعت عن الذئاب... كان اجتماعهم هكذا، على قلّة حركتهم، أمام مبنى الأمن العام، يجعلهم شديدي الشبه بالكلاب العاديّة. تلك الشاردة في الشوارع الفقيرة تراود دكاكين اللحامين متجنّبة قسوة الأولاد واضطهادهم وأذيّتهم.
وأنا أراقبهم هكذا، خُيل لي أني لم أعد أخافهم، حتى أنه خطر ببالي أن أخرج من مخبأي خلف الألواح الرقيقة، وأن أُحدث جلبة ما لأرى ما الذي سيفعلونه. كان تكوّمهم واجتماعهم في مرمى نظري يقوّي فيّ إحساسي بالشجاعة والمقدرة رغم كثرة عددهم. وإحساسي هذا جمّل لي خروجي منتصباً على قدميّ والسير باتجاههم بخطى ثابتة كأبطال الأفلام. قلت من يدري، ربما جعلتهم يهربون مني إذ ما تزال هناك، في زاوية ما من ذاكرتهم، آثار صور لسيادة البشر عليهم، لا بدّ، لانقيادهم لهم وطاعتهم. ثم من قال إن صورة البشري المنتصب تثير عداوة الحيوان المتوحش؟ ربما يكون ذلك صحيحاً لدى الحيوانات الكبيرة الحجم. وأنا أكبر حجماً من الكلب.
تحركوا فجأة حركة واحدة كما تفعل أسراب السمك. كأنّ شيئاً ما، كهربة ما عبرت الهواء فانتفضوا انتفاضة واحدة. أقعيتُ في مكاني أسترجع انتظام تنفّسي. راحوا يركضون خلفه باتجاه الباريزيانا ثم استداروا كأنّهم في اللحظة نفسها يركضون صوبي باتجاه كاراج الأحدب.
قبل أن أبدأ الركض رأيتهم يدخلون لجهة المتنبي وسوق الحدّادين. اختفوا عن ناظريّ تماماً، لكني لبثت في مكاني مشلول الحركة. هنّأت نفسي على السلامة ساخراً من ذكائي القليل على ما كانت تصفني أمي رحمها الله. كيف تهيّأ لي أني قد أخيفهم. أكبر حجماً من الكلب؟ والكثرة العددية؟ أسدان إثنان يفترسان ثوراً بحجم الشاحنة... وأثر تفوّق البشري في ذاكرتهم؟ ذاكرة الكلاب؟ يا عين... كلاب أكثرها ولد هنا ولم ير بشراً أو شكل بشر؛ والأدمي الذي افترسوه تحت أنفي في الأسواق الصغيرة ناحية المعرض؟... يا عين... رحم الله أمي، وأسكنها واسع جنّاته.
كانت أمي تقول إن عبد الناصر قليل الذكاء، فيهزّ أبي رأسه أسفاً ولا يعلّق... إذاك تسترسل أمي: أفهمه الإسرائيليون أنهم سيأتون من الشرق فكمن لهم من الغرب ـ أو العكس لم أعد أذكر ـ هذا ليس مهمّاً على أي حال. قال في نفسه: يسرّبون إليّ أنه الشرق، فأعتقد إذن أنهم سيأتون من الغرب، فأكمن لهم في الشرق، فيضربون في الغرب...
يبتسم أبي مدارياً خجله ممّا تقول أمي فتتابع: لكنهم أتوا من الشرق وغلبوه... من يكون أذكى؟ هل أخترع هذا من عقلي؟ هو شرح لنا ذلك يعتذر عن هزيمته. قال أبي لأمي إن الأستاذ كيفورك، مصدر معلوماتها وتحليلها، لا يفهم بالسياسة فليبق إذن في المزّيكا... المزّيكا؟ قالت أمي وهي تتهيّأ للبكاء. الموسيقى صحّح أبي متراجعاً... قولي للأستاذ كيفورك أنْ لا علاقة للأمر بالذكاء. قولي له يقول لك جرجس متري ـ بعد السلام ـ إنّ المسألة تشبه أن تكون مكان حارس المرمى قبل انطلاق ضربة الجزاء ـ البينالتي قولي له ـ بلحظة، بثانية. الشرق أو الغرب. إلى يميني أو إلى يساري

ستضرب القدم الكرة. أين الذكاء في ذلك؟... يا عين تقول أمي، الحرب ليست فوتبول، ثم طبعاً هناك ذكاء. من نظرة الغولار في عينيّ اللاعب أمامه يجب أن يعرف، أو أن تؤثر شخصيته في شخصية اللاعب، في حركة رجله. هذا هو الذكاء. لماذا يعرف الاسرائيليون دوماً؟ ـ لأنهم ينظرون في أعيننا، يقول أبي ساخراً بمرارة هذه المرّة، لو نظروا في عينيْ الأستاذ كيفورك لربحنا حرب حزيران. أنت تسخر سخرية الضعفاء، قالت أمي وصوتها يتهدّج. لا، يقول أبي... لكنني وبعد أن دخل فينا الغول لا أعرف ماذا أفعل بالكرة بين يديّ... معك حقّ... أسخر سخرية الضعفاء.
الكثرة العددية، رحت أردّد في نفسي وأنا أربط شقباني جيداً حول وركيّ... عليّ أن أكون أكثر شجاعة على أيّ حال، أكثر شجاعة بقليل... فلا أبول في لباسي أو أكاد كلّما لاحت لي أشداق الكلاب... مرة أخرى رحت أقنع نفسي بوجوب التوصّل إلى تعايش معقول، بلا مواجهات دامية... وقلت ربما كان ما فعلتُه اليوم من التبوّل في الأماكن التي مررت بها إلى هنا بدايةً جيدة... عدت أفكّر بالرجوع إلى بيتي عبر الطريق التي رسمتها في ذهني مُقفلاً تلك الدائرة المفترضة، ومتفكّراً بجديّة اختباري الذي ـ على الأقل ـ لم يثبت فشله إذ أستطيع القول إنهم، إن اشتمّوا بولي أو لا، فهم لم يتقدّموا ناحيتي...
رحت أسير باتّجاه البيبلوس وأنا أفكّر بعقدة البينالتي التي ـ برأيي ـ لا تحلّ. ليس لها حلّ. الإثنان، أمي وأبي، معهما حق، لكنّي أرجّح رأي أبي. ذلك أنه من الصعب جداً أن تؤثّر على شخصية اللاعب وهو بعيد عنك... لا ينظر في عينيك ولا يسمع كلامك. ينظر إلى الشباك وإلى الكرة... ويسمع هيصة الجماهير وهتافهم وطبل قلبه. أم تراني، كالعادة، أجد دائماً السبيل والعذر للوقوف بجانب أبي...
لا... عقدة البينالتي عقدة حقيقيّة، بغضّ النظر عن أوجه الشبه مع الحروب ومع عبد الناصر.
قبل أن ألتفّ من خلف سينما بيبلوس باتجاه سوق الحسبة رأيته يقطع الشارع أمامي بالعرض دون أن يلتفت إليّ، ويتبعه اثنان من القطيع...
كيف لم ألمحهم يلتفّون عليّ. نفدوا إذن من شارع قدموس. لن أتمكّن الآن من التقدم باتجاه بيتي.
كانوا يعبرون الشارع بالعرض ذهاباً وإياباً، دون الالتفات ناحيتي، قاطعين عليّ كلّ السبل للتقدّم باتجاه بيتي أو باتجاه البحر، يعبرون الشارع مقتربين أكثر فأكثر مني. إنها خطة لافتراسي إذن، لصيدي بشكل جماعي في فلاة ساحة الشهداء. هو يتعقّبني ورفيقاه يسدّان عليّ من الناحيتين حتى يطبقوا عليّ.
لم أكن خائفاً جداً هذه المرّة. ربما كان يقيني من موتي القريب هو السبب... وربما كان السبب حاجتي للتحرّك بسرعة فلا يشلّ الهلع حركتي.
رحت أركض بخط مستقيم طلوعاً في ساحة الشهداء حتى وصلت إلى شارع بشارة الخوري، ودلفت في مدخل مسرح شوشو. قلت لا بدّ أن يكون القطيع بكامله على مقربة، لكني لم أسمع حركة أو نباحاً. خرجت إلى الشارع فوجدته على بعد أمتار. خمنت أن رفيقَيْه ليسا بعيدين. بقي جامداً في مكانه ينظر إليّ محدّقاً هذه المرّة. قلت الآن سيهجم، لكنه لم يفعل. مدخل مسرح شوشو لم يكن ملجأً نافعاً فهو مسدود

بالركام. كان عليّ أن أقطع الشارع لأدخل مبنى الصمدي حيث أستطيع أن أختفي في بناية متاهة السيتي سنتر، وربما منها إلى اللعازارية إن لحق بي لوحده دون معاونة الكلبين الآخرين. لكنه أسرع مني بكثير وسيثب عليّ قبل ذلك.
لماذا لم يفعل خلال ركضي كلّ هذه المسافة إلى هنا؟
لماذا يقف جامداً هكذا، موسعاً لي، تاركاً لي فرصة أن أهرب من جديد؟ لماذا يلحق بي ولا يهجم عليّ؟
رحت أنظر إليه وأنا أعوي بأعلى ما تستطيع حنجرتي، فلم يجبني ولم يتحرك.
ثم اتّضح لي الأمر بلحظة. إنه لا يفترس الأحياء. إنه كلب عاد متوحشاً لكنه ليس ذئباً. إنه يأكل الجيف وهو يرسلني إلى حتفي. ينتظر موتي ليأكلني. إنه كلب شرير فمن أين له شيم ذئاب الغاب؟
هكذا إذن يا كلب، رحت أصرخ وسط الشارع. لكني حين رأيت رفيقيه يقتربان وراءه أطلقت ساقيّ للريح، لكن بدل الدخول في بناية الصمدي، وجدتني أتجه إلى ساحة الدبّاس عابراً امتداد شارع الأم جيلاس. هناك اعتليت درجات الكنيسة، أو ما انهار من حجارتها البيضاء، ألتقط أنفاسي وأنظر حولي. لم أر أثراً للكلاب. هذا لا يعني شيئاً، قلت لنفسي.
عليّ الآن أن أقرّر سريعاً: أأسلك طريق الشام باتجاه السواتر أو أعود أدراجي فأختفي تحت الأرض من حفرة كنيسة مار جرجس، أعبر كما في المرات السابقة ثم أخرج من الفتحة الأقرب إلى بيتي بعد أن أستردّ قواي وتستردّ الكلاب يأسها ونسيانها؟
لم أتردّد طويلاً. سمعت العواء يعلو من أماكن عديدة غير بعيدة. بدا لي وكأنّ الظلام هبط فجأة كما حين كنت على وشك الغرق وأنا ولد.
رحت أمشي مشياً في طريق الشام. لا أركض ولا ألتفت ورائي. رحت أمشي وكأنّي أتنزّه. تذكّرت أنّي لم آكل منذ أيام، وشعرت بجوع فظيع... وبالعطش. قلت إني ربما متّ من جوعي وعطشي قبل أيّ سبب آخر. قلت إن «بلينيوس» الفهيم ـ كما كان يدعوه أبي ـ مات بالذبحة القلبية من أصوات انفجار البركان البعيدة بعد أن جنّبته صدفةٌ بسيطة سعيدة الموتَ تحت ركام بومبيي... وأنّ أبا التراجيديا إسخيليوس العظيم ـ كما أدعوه أنا، وكلّ خلق الله ـ مات مشجوج الرأس، إذ خلط صقر اصطاد سلحفاة وأراد أن يكسر درعها على حجر، خلط بين الحجر وقرعة أبي التراجيديا «إسخيليوس» العظيم الذي كان أقرع. ومن المرجّح جداً أن يكون فقد شعر رأسه لشدّة ما فكر بمآسي البشر... وبعظمتهم.
ألقيت بعصاي بعيداً، وخلعت عني شقباني الفارغ، ورحت أسير بخط مستقيم لا ألتفت ورائي. كنت أعرف أني بتّ على أقلّ من مرمى حجر من السواتر ومن البشر وراءها... في بلاد الحروب.



ما الذي تفعلينه بي يا شمسة؟
لماذا أتعلّم منك نعمة الأشياء وتتعلّمين مني نقصان هذه النعمة، عذابَ اكتمالها.
ألأنّك أكثر حكمةً مني، أكثر تواضعاً، أكثر تحقّقاً في الألق وأقلّ خوفاً من خطر الفقد ووعيده؟
ما الذي تفعلينه بي يا شمسة حين تعذّبينني؟ تغيبين هكذا، وتعودين بكلام خفيف تعرفين تماماً أنه الكلام المنتقى لخفّته، ولأنه لا يملأ غيابك ولا يقلّل من وطأته. حكاياتٌ عن غيابك تروينها لاهيةً، تروينها فقط ليتأكد ثقل هذا الغياب وثبوته في قلبي حين تحضرين. لكي تمحي كلّ شكّي بشرعية الأعذار التي اختلقتها لكِ، وجعلت أتمرّن على الاقتناع بها حتى كدت أنجح. تحضرين لتقولي لي إنك كنت في مكان آخر لا لتقولي لِمَ لمْ تكوني هنا.
كأنك تريدين أن أكبر وأنضج في عمري وأتواضع. تريدين أن أعرف أن البشر أقلّ من أجسادهم، ومن وقوفها في «كريشندو» اللذة إلى ما لا نهاية. إذ حين يتعدّى «الكريشندو» اللحظةَ التي هي له، لا يتبقّى غير انفراط النوطا وفسادها. ومغادرةُ الذروة هو إنقاذها من الفساد ومن النشاز البشع.
تغيبين لتعودي، رأفةً بي، لكني لا أتعلّم، لا أتّعظ. أتعذّب كلّما رحت تروين لاهيةً أسبابَ غيابك الواهية، التي تسوّر هذا الغياب جيداً وتحفظه بأوقات حضورك الذي لا يحسن الاعتذار، وأعرف أني بتّ أخسر هذا الحضور أكثر فأكثر إذ لا أراه إلاّ محاصراً بذلك الغياب وتكراراً له. أتعذّب في متعتي بحضورك، وأرى عذابي المؤذي والمضرّ واللامجدي فأتعذّب أكثر. كلما حضرت إلى بيتي اشتدّ عليّ غيابك خارجه، وأفسدتُ على نفسي هذا الحضور وأنا أحاول ملء الغياب. كأني في حضورك أفرّغ الماء الذي لي الآن في سلال الأمس التي ضاعت مني. من هبلي. تفتحين ذراعيك وبدل الهال أشتمّ كبريتاً... بدل رائحة رقبتك أشتمّ احتراق قلبي. كأني صرت مُغرماً بي، لا بكِ. ولا أعرف كيف أوقف عجلة خسارتي.
حين أحاول الكلام، الاعتذار، تضحك شمسة. تقول: إنها عجلة الوقت المباركة لا عجلة خسارتك. ألم أعلّمك «اليبروج»؟ تعلمتُ كلَّ ما علمتني يا شمسة واستفدتُ من علمي: القوّيصة للتعرّق، والخَروع للرشح القاسي، وزهرة السلحفاة لصحة اللثة، والبابونج لأرق الجفون... لا، تقول شمسة، أذكّرك باليبروج لأن العلم ليس فقط في ما تظهر فائدته بل في ما ينغلق أيضاً في سرّ هذه الفائدة... أتذكر نبتة اليبروج التي تقوّي الباءَ كيف تهرب في الأرض، كيف تختفي وتجمد عن النموّ، وتتخذ في باطن الأرض شكل جنس الأنثى أو الذكر... كيف تُفصح عن سرّها لمن تريد وتقتل من يقتلعها دون دراية... كيف تتراوح بين السمّ والإكسير، بين الموت واللذة العارمة، بين الإفصاح والغياب.
لكَ أن تختار... وتستطيع أيضاً الاكتفاء بالبابونج ومنافعه الكثيرة بلا شكّ. لك أن تختار أيّة امرأة تريد، أيّة لذة... لك أيضاً أن تتردّد قدر ما تريد وأن تخسر، فأنت تعلم أنّ اليبروج ينزل في الأرض ويختفي تماماً أو يتخذ أشكالاً يصعب معها كثيراً التعرّف إليه... وقد يكون ذلك أفضل للراغب فيه من تحوّله إلى السمّ القاتل.

يمنعني عذابي من التعلّم والاتعاظ يا شمسة. لا يفهم اليبروج وسرّه إلا من كان بارد الرأس حكيماً. وأنا، يلتهب رأسي كلّما وقفتُ خلف زجاج النافذة متحيّراً في ما عساه يمنع ظهورك عليّ في أول الشارع. لا يتّعظ من يقف على شفرة غيابك مهدّداً بالوقوع لجهة استمرار هذا الغياب أو لجهة حضورك الذي يحفره عميقاً، ويؤكده إلى غير رجعة.

أنا لم أتّعظ من اليبروج، لكنك تعلّمتِ الدانتيلا. ربما لأني كنت أعرف إلى أيّ درس نسير معاً قادتني معرفتي الشقيّة... ربما لأنك كنت بريئة من معرفتي استطعتِ أن تتعلّمي حرّة من خوف الدرس الآتي...

كنت أعرف أننا بتنا نسير إلى لعنة الحرير... لذا حين توقفتْ شمسة لتسألني أشياء عن «الساميت» لم أبح. خفتُ ولم أجب سوى بما يردّها إلى الدانتيلا...

ما عليك من نسيج «الساميت»... إنه في تشكيل خيوطه نوع من الدمقس لكن اللون، أو الألوان المتعددة، تدخل في تصاويره فتكون التلاوين والظلال متغيّرة كلّما تحرّك القماش أو اهتزّ. والدمقس الدمشقي الذي علّمناه للفرس وصدّرناه للعالم هو أول تمارين الدانتيلا في تقنيّة الظلّ والضوء، السالب والإيجابي، إلاّ أنه بقي لعبةً للعين ومتعةً للذهن، إذ هو لم يرتفع عن السطح السويّ الواحد ليمزج به الهواء، ويفتحَ شهيّةَ الخيال على شبق الاستيهام وغواية ملامسة الرذيلة في تعرية ما يبقى مستوراً...

للوصول إلى التخريم كان ينبغي أن تكون البندقية، حيث اتّخذ مزجُ عنصرَي الأرض والماء جمالاً استثنائياً يشبه الصُّدفة التي لا نفهم كيف تتحقّق مهما حاولنا. الماء ممزوج باليابسة والضوء بانعكاس الضوء. شيء يشبه المعجزة أو الخطيئة، هارب من الوقت إذن لا محالة... وكان ينبغي أن تكون البندقية ليكونَ التخريمُ بذخَ الخيط الأخير، لعبةَ تخفّيه وظهوره، مزاجه الزئبقي وهروبه في العين... وهذا كلّه ما كان ليكون إلاّ في مملكة عرفت قدراً من الثراء والأبّهة هو ما يجعل غواية ملامسة الرذيلة أمراً مشروعاً بل نافلاً.

كان ينبغي أن يهرب أرستقراطيّو سبينا وأكيلي وأدريا وألتينوم وبادو من غزوات البرابرة إلى حيث لا تصل سنابك الخيل ورماح الفرسان، لكي ينصرف المهندسون لبناء أشواقهم على مساحة سبعة كلمترات مربعة فقط. قلب هذه المدينة الجديدة الفريدة جاء متجاوزاً الخيال والحلم، مذهلاً إلى حدّ جعل المهندسين يخطئون ترقيم الشوارع والأبنية، وحين عاودوا الترقيم بالأحمر بعد الأسود أخطأوا ثانية تاركين لمزاج الماء أن يفتحَ الشوارع أو يغلقها على المشاة مقيماً ترقيمه وهندسته الخاصّين، في مدّه وجزره.

وبقدر ما تكون هندسة التخريم مضبوطة محسوبة الحبكات للعين، يخرّبها الخيال وتتلهّى الرغبة عن فائدة الترقيم. فالحسبان في حبكات الدانتيلا يكون صارماً بالقدر الضروري لتخريبه، لخراب العين فيه. كالشبكة المنتظمة بدقة، هي فقط من يوقع الأسماك. كالفخ المتقن الماهر الصنع، هو فقط الفخ القاتل.

«بونتو إن أريا» قال أهل البندقية. إنها «حبكة الهواء»، أدخلوها على ثقل البروكار والمخمل لترفعه إلى تعقيد التناقض الفذّ، لكنهم انتقوا لها أطراف الثوب حيث يمسّ نقاط الشهوة... تماماً في الأمكنة التي يشفُّ فيها الجلد ويضرب النبض... تماماً في الأمكنة التي نترك عليها نقاط العطر: الرقبة وحدود تقعّر الكتف، الجيد ومنحدر الانزلاق بين الثديين عند رفيفهما، المعصمين وخط انزلاق القبلة إلى باطن الكف المقلوب أمام الشفتين. هناك دخلت الدانتيلا. هناك تمتزج الرؤية بالخرافة، الجلد بالرغبة، الجفن بماء الشفتين.

ضحكت شمسة وهي تنظر إليّ من تخاريم الدانتيلا السوداء التي غطّتها حتى الردفين وقالت لماذا تأخّروا إلى هذا الحدّ حتى رأوا ما هو أمامهم منذ بدء الخليقة. ثم مرّت شمسة بيدها على أسفل بطنها وقالت: لماذا إذن جعل الله لنا هذه الزغب في هذا المكان، تماماً في مكان الانزلاق إلى آخر الشهوة مثلما تقول. أليس هذا أول الدانتيلا، لكي ترى ما لا تستطيع رؤيته ولكي لا تراه. لماذا تأخّروا إلى هذا الحدّ؟

ربما لم يجرؤوا يا شمسة، قلت لها، ربما لم يجرؤوا. لم يملكوا العجرفة البشرية اللازمة، البذخَ والثراء الضروريين، المملكةَ التي تجاوز جمالُها أحلام المهندسين وقامت بقرار من صنّاعها على وجه الماء، في تحدٍّ يشبه الهرطقة، الكفر.

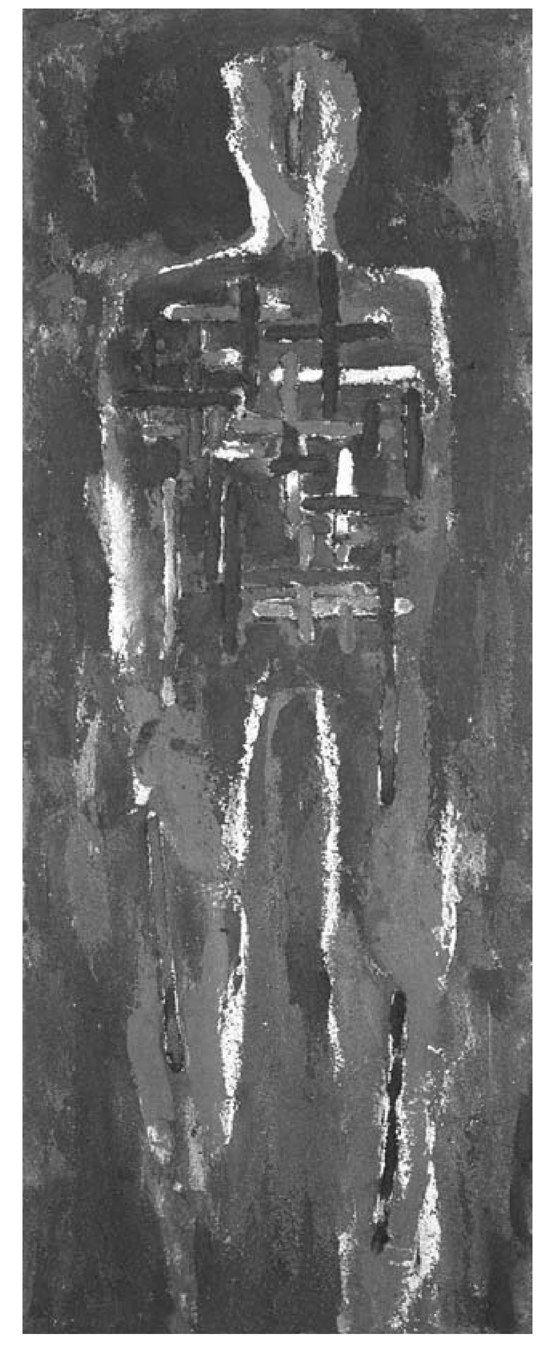
وكانت الدانتيلا بذخاً على بذخ، بحسب حكمة أن من له يُعطى ويُزاد. كأنّ محيطات العالم كانت قنوات لنقل ذهب العالم وفضته إلى البندقية ثمناً لحبكة الهواء. يبيع الأسياد قصورهم وأراضيهم، فلاحيهم وطواحينهم من أجل ذراع من الدانتيلا تصنعه ستة ملايين وأربع مئة ألف حركة مكّوك... مقاطعاتٌ تُفلس وإمارات تنهار وعروش تهتزّ، بينها عرش فرنسا العظيم، حتى قرّر الداهية «كولبير» أن يوقف النزف... فمن تراه كان سيقدر على فهم خطورة متاهات الخيط أكثر من ابن تاجر القماش جان باتيست كولبير...

لم يتردّد «كولبير» طويلاً إذ كان يعرف أن الثعلب «لوڤوا» والنبلاء المزيّفين يقفون له بالمرصاد... كان يعرف أيضاً أن مزاج الملك الشمس لن تعدّله حساباتُ الخزائن وبيوت المال طويلاً أو تكبح جماحه نصائح وزير هو، رغم مدائح مازاران، ابن تاجر قماش ليس إلاّ.

جمع كولبير مثقال وزنه ذهباً وفضّة، اختار أجمل المحظيّات وتوجّه سرّاً إلى البندقية. تحت جنح الليل التقى رئيسَ مشغل الدوج المعظّم الخاص. أعطاه كل ما طلب دون مفاوضة أو مراوغة. رسم شارة الصليب واستغفر سريعاً من القديس مرقس، ورجلاه غارقتان في مياه الساحة المظلمة. بين قصر الدوج النائم وبرج ساعة العبدَيْن، كان ضوء القمر شحيحاً على قبب الكاتدرائية بحيث لم تشعره هيبتها بالخشية أو الخشوع أو الندم.

ابتسم كولبير ابتسامة عريضة من على ظهر مركبه وهو ينظر إلى كرة مبنى الجمارك الذهبية وقال في سرّه إن حبكة الهواء صارت الآن له، وسيحملها إلى ألنسون قبل استواء الشمس في كبد السماء، فعلى حامل كرة الجمارك الذهبية في مرفأ البندقية أن يخفّف قليلاً من غطرسته.

لكنّ كولبير السعيد، المبتسم في ظلمة ظهر مركبه المبحر مبتعداً عن مرفأ البندقية، لم يكن يعرف أن الغاوية الطمّاعة «كاترين دو ميديسيس» وكلّ النساء اللواتي سينزلقن في أسرّة ملوك فرنسا من بعدها، وحتى أنطوانيت الجشعة، سيجعلن ثمن بكرة خيط الدانتيل الواحدة يصل إلى أكثر من مئة وأربعين ذهبية. تحت لعاب المحتكرين الذين كانوا يتحكّمون بسعر تشغيل الفقيرات إلى حدّ جعلهنّ يخلعن بناطيلهنّ ويقفزن في حمم الثورة السائلة في الشوارع كصهارة البراكين الحمراء... هكذا مثلاً بقيت فقيرات بروج البلجيكيّة يعتشن من الإبرة والصنّارة بعيداً عن خراب الثورات لأنهنّ كنّ مقتنعات أن السيدة العذراء هي نفسها من علّمت البتولات حياكة الدانتيلا ليعتشن، ولأن محتكري بروج، وبلجيكا كلّها آنذاك، لم يكونوا في مثل جشع الفرنسيين ونسائهم... والأهمّ من هذا كله هو أن بروج، القائمة أبنيتها وشارعها على المياه كانت ـ وما تزال حتى الآن ـ تُدعى البندقية الصغيرة لشدّة شبهها بمملكة القديس مرقس المحمية بأسدَيْه الشديدَي البأس.



ما الذي تفعلينه بي يا شمسة؟

لم أكن أعرف بؤس الحكمة. ما قال أحد لي، ما علّمني أحد أنّ ما أعطيه أفقده. أخسره وأدفع الثمن غالياً.

ربما لأني أعطيتك ممّا لم يكن ملكي. ربما لأني علّمتك دون أن أملك قدرة المعلّمين. غرفتُ لك من كيس غيري، وأنا مملوء بعجرفة المحسنين والمتصدّقين والكرماء. وقعت ضحية معرفتي القليلة الفقيرة. غشّتني دروس التربية، أو أني لم أفهم الدروس كما ينبغي.

صدّقت من قال لي إننا كلّما أعطينا ازددنا ثراء، كلّما أفسحنا اتسعت الدار، كلّما غرفنا امتلأت العدولُ والقدور.

لم يقل أحد لي أن أحصي ممتلكاتي. لم ينصحني أحد بالتواضع لمعرفة اتساع داري. لم يمسك أحد يدي عن الغرف من عدلي وقدري قبل أن أعمد إلى وزن داخلها القليل.

أم تراني لم أفهم الدرس كما ينبغي، وأخذني غروري إلى قصاص غيابك، إلى بئر فقدك الأملس الجدران، حيث لا يمكنني التشبّث بالحقد عليك، باتهامك بالخيانة، بالغش، بالسرقة، بالطعن في الظهر... بما أنك تعودين؟

هل تعلّمتُ أنا نفسي ما علّمتك إياه؟ هل فهمته؟ أم تراني وقعت في سحر الإنشاء وانغلق عليّ ما رأيته أنتِ في سماء الكلام خلف غيوم ادعاءاتي المثيرة للشفقة؟ يؤلمني الآن جسمي، تؤلمني الآن أعضائي من عذابي رغبةً فيك. تؤلمني الآن أعضائي التي تضيء أمام عينيّ ورغماً عني من شوقها إليك. تضيء أمام عينيّ، في عجزي وخَوَري، بعيداً عن أيّ مقدرة لي ورغماً عنّي.

تضيء أعضائي من عذابي رغبة فيك كهذه الحباحب التي تؤنس ليلي، ظلمتي الحالكة، بعد أن انطفأ سراج الزيت إثر غيابي الطويل عن بيتي.

كنا نسمّيها صغاراً قناديل الليل الطائرة. لم نكن نعرف أنّ ضوءها الفوسفوري الأزرق الجميل ليس سوى عضو جنسي تشتعل فيه الرغبة إلى الأنثى. لم نكن نعرف أنّ الضوء ليس سوى أنين الشكوى من وحشة الطيران بجناحين اثنين فقط، أنه نداء استغاثة من حريق الرغبات وعسّها في ألم الأعضاء.

أنحرفُ قليلاً على مقعدي الحجري لأتابع طيران الحباحب الليلية إلى شجرة الخرّوب التي باتت الآن قبالتي، ولا أتبيّن من شكلها سوى انطباع تخاريم أغصانها العليا على ليلك السماء.

شيئاً فشيئاً يكثر عدد الحباحب ويرسم بصيصها المتقطّع شكل شجرة الخروب وقد امتلأت بصراخ الذكور الفوضوي. أراها من مكاني تفور بكهرباء الشبق الفاتلة الألياف... بشحنات ترمش كالهذيان...

ثم شيئاً فشيئاً ينتظم الوميض، يتّخذ إيقاعاً وينضبط بصرامة. تجتمع الأضواء الصغيرة على شيفرة واحدة تشتعل وتنطفئ في وقت واحد لا يشوبها خطأ أو حركة شاذّة.

من وضع مفتاح الشيفرة سوى ذكاء الغريزة الفائق؟ كأن الحباحب تعرف أنها، متفرّقة، لن ينوبها سوى الفشل واحتراق الأعضاء، وأن حظّها في اجتذاب الإناث هو أوركسترا الشجرة في اكتمال الإيقاع... هو أن تصبح الشجرة وليلُها ذكراً واحداً، رغبة واحدة... عالية، صارخة، مرصوصة.

وأنا... واحد وحيد، أشتعل وأخبو سدى، في ليل لا يضيء معي، ويتركني في غريزتي الناقصة المتعطّلة لفوضاي، لوحشتي وقلّتي. أقف على شجرتي خلف النافذة. تأتين، لا تأتين. تأتين. لا تأتين. تأتين لا تأتين. على شجرتي وحدي.

رحتُ أربّت على رقبة «ثلج» المقعي بقربي... وأنت كيف تفعل يا ثلج؟ هل يكفي إن تعوي عواءك العالي لتحضر أنثاك؟ علّمني يا ثلج...

سمّيتُه «ثلج» ليس فقط لبياض فرائه، بل لأني حين فتحت عينيّ من لعيق لسانه على وجهي بهرني ضوء النهار، وخُيّل إلي، من نومي الطويل العميق لا بدّ، أن الثلج الأبيض كان يغطّي كلّ ما حولي بطبقة رقيقة مشعّة.

أدركتُ أنّهم أخطأوني وأنّي على قيد الحياة حين رأيت الجثث المنفوخة حولي وشممتُ رائحتها. أدركت أيضاً من شذرات صور ومضتْ في رأسي أني استفقت مرّات تحت وزن من ماتوا فوقي ودفعتهم عنّي، وأني سمعت أصواتاً تبقبق بقبقة من حناجر مفتوحة إلى الهواء سرعان ما همدت وانطفأت بعد أن ملأها ماء المطر الذي انهمر عنيفاً. عنيفاً حتى صمّت طرطقته أذنيّ وردّتني إلى نومي.

حينها لم أخفْ من الكلب الذي كان فوقي يلعق وجهي. رغم أنه كان هو من دفعني دفعاً، عن قصد منه ومن رفاقه أو عن غير قصد، إلى حيث تلقّفني الحاجز المسلّح عند حدود الساتر الترابي. حدست فوراً أنه لا ينوي افتراسي، ثم تذكرت أني شككت عميقاً في إمكانيّة افتراسه الأحياء خلال هروبي منه وقبل وصولي إلى الحاجز.

وقفت أنظر حولي وأنظر إلى الكلب. قلتُ إني ذهبت من نفسي إلى الحاجز المسلّح، مدفوعاً بغبائي كالعادة.

رحت أمشي ذاهلاً في نفسي والكلب يتبعني عن قرب حتى تأكّد لي أنه إنما كان يريد رفقتي منذ البداية. أنه لم يكن ينوي لي الشرّ أو العداوة. كان يريد بشرياً صاحباً ومعلّماً، ونساً يشبه ذلك الذي اختفى ذات يوم خلف السواتر. لعلّه من شوقه إلى صاحبه الذي تركه ذات يوم، أو مات فغادره رغماً عنه، وجد فيّ مخلوقاً يذكّر بذلك الذي رحل دون وداع.

رحت أمشي نزولاً في ساحة الشهداء وهو يتبعني عن قرب. ما عدت أخاف شيئاً بعد أن أخطأني الرصاص الرشّاش حين أوقفونا صفّاً واحداً لصق الحائط. رموا أجسادنا خلف الساتر معتقدين أنّا متنا جميعنا، أو أنّا على وشك ذلك والدماء تفور من الثقوب التي تركها الرصاص فينا. لا بدّ أني وقعتُ من فزعي قبل أن يصلني الرصاص فغطّتني أجساد الآخرين، أو على الأقل جسد من كان بقربي، عن يساري، من حيث بدأت حركة الرشّاش في يد الرجل الذي أوكلت إليه مهمة تسفيرنا كما قال له رئيسه وهو يتابع حديثه على «التوكي ووكي» مع رؤساء آخرين.

فكّرت أن أعود إلى هناك وأدفن الجثث، لكنّي سرعان ما أقلعتُ عن الفكرة حين تذكّرت الرائحة القوية. قلت إنّ كلّ أدمي يلقى المصير الذي رسمه له الربّ، وقلت إنّ الكلاب ربما تكون جزءاً من هذا المصير.

جلستُ أمام اللاروندا، عند عصير الزين، ألتقط أنفاسي. رأيت الكلاب تهرول رواحاً ومجيئاً أمام بن عازار ولا تقترب ناحيتنا. ثم انتصبت أذنا الكلب الذي كان بجانبي، انتفض جسمه وتسمّر وهو ينظر ناحية رفاقه... سمّيته «ثلج» وهو يركض ناحيتهم ويختفي معهم في شوارع الأسواق الصغيرة خلف بن عازار. كنت أبتسم معجباً ببياض فرائه، مخمّناً أن لونه الأبيض، لا قوّته، هو وراء تزعّمه القطيع الذي يتركه ويعود إليه على هواه، مثل زعماء البشر، فيما البقية تبقى مجتمعة قلّما تتفرّق إلى أفراد.

مشيت متمهّلاً إلى حيث البركة الصغيرة المحاطة بالقصب على مقربة من مجلس النواب. رغم برودة الجوّ كانت أشعة الشمس القويّة تبعث فيّ حرارة لذيذة بعد أن تعرّيت من الخرق الوسخة التي كانت عليّ. قطفت باقة كبيرة من حشيشة الزجاج، ونزلت في الماء أستحمّ وأستمتع بالرغوة الكثيفة وبرائحة الماء. أشفقت على نفسي وحزنت قليلاً حين رأيت هزال ذراعيّ فوق الماء. بدتا طويلتين جداً كأنهما تذهبان أبعد مما يجب عن كامل جسمي.

خرجت من الماء وجلست على حجر نظيف أستخرج ما تبقّى من وسخ وتراب تحت أظافري الطويلة. أحسست بالجوع يعتصر أمعائي كما كنت أشعر صغيراً بعد خروجي من الحمّام، لكني لبثت في مكاني أنتظر أن أجفّ تماماً وأنا أنفض شعري بأصابعي حتى ينشف بسرعة، ويعود الدفء إلى كامل جسمي. انتبهتُ إلى أن القمل غزا فروة رأسي واستأت كثيراً، قلت: كيف أنزل إلى بيتي وأنام على أقمشتي وأنا هكذا. اقتلعت بعض نبتات القرّاص منتبهاً ألاّ تلذعني أوراقها، جعلت أضفرها وأغرزها في شعري ممنّياً النفس بأن تخلّصني سريعاً من القمل. ثم تفحّصت شعر إبطي وعانتي فوجدته نظيفاً خالياً يلتمع سواده على بياض جلدي، فاستحسنت ذلك.

رحت أمشي خفيفاً عارياً في نزلة الجامع العمري. قبل أن أصل إلى شارع فيغان وجدت ما كنت أمنّي النفس به. كانت النخلة الصغيرة في مكانها وثمارها ما زالت عليها وقد طابت. تسلّقت ساق النخلة بسرعة ويسر ورحت أقطف التمر اللذيذ وآكل حتى امتلأ بطني. حملت بعض الجرود الكثيفة الثمر، واتجهت سعيداً هانئاً صوب بيتي وأنا أتساءل عمّا يكون الآن من حال الحديقة والمصطبة دون أن يشعرني ذلك بالقلق.

لم يكن أبي مجرّد بائع قماش كما يحلو لأمي أن تقول، فلا تصدّقيها ولا تستمعي طويلاً إلى أحاديثها المختلقة، قلت لشمسة التي طرقت بابي ذات مساء بعد أن هدّني الوقوف الطويل خلف النافذة أنتظر أن تطلّ عليّ من طرف الشارع.

لماذا أتيتِ هذا المساء يا شمسة؟ لماذا تأتين في غيابي وما الذي تريدينَه من أمي العجوز الخرفة ومن أحاديثها الكاذبة المختلقة. ألا تثقين بي؟ ألا تصدّقين ما أرويه لك؟

بلى، تقول شمسة، لكنك لا تروي لي كلّ الحكاية. لماذا لا تعلّمني الحرير؟

ـ لأن الوقت لم يحن بعد.

ـ قلتَ إن للحرير حكايات كثيرة، علّمني الأولى وسأنتظر.

ـ سأفعل ذلك قريباً جداً.

ـ أنت تكذب عليّ. لم تحمل حريراً لي إلى هنا حتى الآن. تعدني بالحكاية ولا تحكيها... تعدني لأعود إليك رغبة في سماع التتمة التي لا تجيء، الحكاية التي لا تبدأ.

كانت شمسة تتكلّم واقفة قبالتي، كأنها تهدّدني بالخروج والذهاب بعيداً، وبالغياب الذي سيربطني كالكلب المسعور إلى زجاج النافذة.

نزلتُ إلى الأرض وتربّعت على السجادة أداري رغبة عميقة في الإجهاش بالبكاء عالياً. لكني ابتسمت وتنحنحتُ كما أفعل حين أبدأ بالحكاية، فلم تستجب للغواية وبقيتْ واقفة. نظرتُ إلى وجهها مستعطفاً وعاتباً، فابتسمتْ. مددتُ يدي إلى خسفة الساق عند العرقوب وسوّرته بكفّي، فلم تبتعد. اقتربتُ وعانقتُ ساقها، وجعلت رأسي من الخلف حتى تجويف الركبة حيث الغمّازتان اللتان تلهبان أحلامي حين تغيب عني وحين أتذكّر ذلك العصب المشدود الذي ينبض سريعاً في إحداها. رفعت يديّ إلى ركبتيها أدفعهما برفق لتستدير ففعلتْ، ثم جعلتُ شفتيّ في تجويف الغمّازتين أنتقل بقبلاتي السريعة المحمومة من تجويف الركبتين إلى الساقين، خائفاً هلعاً من انفلاتها منّي.

ثم أحسست بانغراز أصابعها في شعري قبل أن تتمسّك به، فتستدير إليّ ثم تنزل على ركبتيها.

وهي تنظر في عينيّ بجفنين نصف مغمضين قلتُ إن هي قبّلتني في فمي، أكون ربحتُ نصف المسافة، أكون غير فاقد أملي. إن هي قبّلتني في فمي تكون أقل قوّة عليّ مما يتهيّأ لي ويعذّبني في بعدها عنّي.

لم أقرّب وجهي من وجهها. قلت لن أترك مجالاً للبس يؤجّج فيما بعد شكّي. لن أختصر المسافة، لن أقطع نصف المسافة إلى فمها. عليّ أن أتمسّك جيداً بشعرة اليقين التي تربطني الآن إلى عينيها نصف المغمضتين، إلى شفتيها المنفرجتين وقد التمع عليهما اللعاب الأحمر. عليّ أن أثبت قليلاً على شعرة قوتي التي، لو انقطعت، لانهار إثر انقطاعها توتّر عصب شهوتي كاملاً، وترك جسمي يتكوّم كالخرقة في العذاب والعجز التام. والندم.

لم أقرّب وجهي من وجهها، مقاوماً في نشاف ريقي وتسارع لهاثي، وقوعَ أعضائي في الخدر. إن لم أبق على توثّبي ستأكلني الرغبة، ستأكلني قوتها، وندمي.

إن لم تقرّب فمها وتقبّلني في فمي سأتمسّك بفرصتي الأخيرة، ولن أضاجعها. إن لم تقرّب فمها وتقبّلني في فمي وضاجعتها رغم ذلك، ستذهب ولن تعود. إن استطعت بقدرة قادر مضاجعتها رغم يقيني ورؤيتي نفسي خاسراً خساراتي الأخيرة التي لن أقوى على تقبّلها، فهي لن تعود.

فمها. فمها. فمها... دون أن أحرّك رأسي. أعمل رأسي في احتساب المسافة حتى لا أقدّمه دون أن أشعر، حتى لا ينحني من نفسه، دون إرادة مني. حتى لا تخونني فقرات رقبتي.

لا أغمض عيني حتى لا تحسب ذلك دعوة لاقتراب فمها. الآن ألعب ورقتي الأخيرة مفتوح العينين ثابتاً. أنظر في عينيها لا في فمها. أبقي رأسي ثابتاً في تشنّجه السرّي حين يُخيَّل إليّ أن المسافة تقصر وأنها تقترب بفمها الأحمر الذي لا أراه. يكسو عينيّ المفتوحتين حريق خفيف ولا أرمش. يكسو عينيّ المفتوحتين سواد مطبق فأعرف أن فمها في فمي. أغمض عينيّ. أغمض عينيّ على دموع لن تراها الآن. أطلق كلّ دمي إلى فمي حتى أكاد أستطعم الدم الحار. لا أخاف انسحاب دمي المفاجئ من عضوي وفراغه الكامل لأني أعرف كيف على الدورة أن تدور الآن بعد أن بدأت كما أردت أن تبدأ. كما ينبغي لها أن تبدأ. لا أخاف انسحاب القوّة من جسمي، لأن الدفق الناري سيعود الآن عارماً حتى يكاد يفسّخ خلايا الجلد وهو يصطدم بسدّها، قبل أن ينفث بخاره الذي يلتمع الآن عرقاً على كامل وجهها، ويرطب وجهي بملحه.

طعم شفتيها صار الآن لحماً يذكّر باللحم ولا أستطيع أن آكلهما. أبتعد عن شفتيها، وألحسهما بلساني محاولاً تهدئة رغبتي الحقيقية في أكلهما. أبتعد عن رقبتها، أعضّ كتفها خفيفاً، ثم أبعد جذعها عني لأراه. لأرى أنّ بإمكاني الانفصال عنها، وأنّي غير غارق في لحمها. تنزع ما تبقّى من ثيابها عليها وتستلقي على ظهرها بعد أن تطفئ بحركة سريعة ضوء الزاوية، فأنتبه أنّا صرنا في الطرف الآخر للصالون، وأن الليل أطبق تماماً على زوايا البيت.

تعود شمسة من الحمام وشعرها الأحمر الطويل يقطر ماء. أراها التفّت بمنشفة كبيرة ولم ترتد ثيابها، فأسألها إن كانت ستبيت عندي فتقول: هذا يتوقّف على الحكاية إن أغوتني السماع بقيت... إن أغوتني المعرفة.

هذه الليلة أروي لك الحكاية التي ستقودنا إلى الحرير. فلكي ندخل في ذلك الفصل الأخير علينا التسلّح بمعرفة خاصة، واسعة، تقوّي فينا قدرة التلقّي، وترفعنا إلى مستوى الحكاية فلا نقع ضحيّة سحرها. فالمعرفة خطر على الجاهل غير المهيّأ لتلقّيها، إذ لا يقتصر الأمر على فوات الفهم وضياع اللذة... إنها، كما علّمتني عن البيروج، قد تتحوّل من الأكسير إلى السمّ الزعاف.

وأبي الذي علّمني كل ذلك ودرّبني تدريب المريد الطويل لم يكن مجرّد بائع قماش. كان عالماً فاهماً للسرّ، لذا أنتظر ما يكفي من الوقت لأصبح بالغاً، لأرى المرأة في أمي والرجل فيه ولكي، حين أحصي العدد، نكون ثلاثة لا أقلّ، وحين أحتسب التعاقب من جدّي المهاجر إليّ، نكون ثلاثة أجيال لا أقلّ.

وقال لي أبي إنه كان ينوي أن يترك وقتاً أطول لمعرفتي كي تختمر فأسير في الحكاية إلى جانبه، تتكشّف لنا معاً ولا يلقّنني إياها تلقيناً... لكنّ زمن الانحطاط ـ زمن الديولين ـ كما كان يسمّيه ـ حاصرنا، وكذلك مرضه وحدسُه بموته القريب. وها أنا أجازف بقصّ ذلك عليك، فأنت ما زلت يانعة، لكنك تحاصرينني بإلحاحك واستعجالك وتستعملين أسلحة ممنوعة حين تهدّدين بالغياب. فاسمعي جيّداً لأننا معاً ـ أنا وأنت ـ مبحران سوية في المغامرة نفسها.

... نبدأ من البداية ـ كما يقول أبي ـ من حيث انطلقت هجراتنا إلى جهات الأرض كافة، من سواحل غرب القارة الإفريقية، حيث يروي حكماء قبائل الدوغو أن الربّ ـ وهو الكلمة الخالقة ـ كان في أول عمليات خلق العالم نفحة أوجدت النباتات ذات الألياف والحيوانات ذات الفراء والزغب، وهي التي كست جلودنا قديماً. أما كلمة الربّ المكوّنة من أحرف مترابطة، الملفوظة بكامل الفم، فهي تعود إلى الجنيّ الرابع أوغو الذي تمرّد على الربّ بدعم من العنكبوت التي أغوته في الشجرة. العنكبوت الداهية كانت لعينة لكن الشجرة مباركة مؤمنة، ولذا راحت الشجرة تنمو وتمتدّ نحو جهات الكون الأربع لتعود فتلتفّ على العنكبوت، تحدّ من عنجهيّتها وأذيّتها ثم تخنقها حتى لا يكتمل تمرّدها في نسجها لسطح الأرض. ولا تعود كلمة الربّ إلى البشر إلاّ بعد تكفير طويل يستمرّ حتى ولادة الجنيّ السابع، وهو جدّ البشريّ الجديد، والذي خلقه الربّ على شكل نَوْل يحمل كلام الرب إلى البشر مجسَّداً في ثمانين خيطاً من القطن، أربعون عليا للسداة تكون المزدوجة وأربعون سفلى للنير وتكون المفردة موزّعة كما الأسنان في الفم. والسَداة والنير تروحان وتجيئان كحركة الفكّين فيما تشكّل بكرةُ الخيط الحلقَ، أما المكوك فهو اللسان.

وفي لغة الدوغو كلمة «سواح» تعني القماش وأيضاً الكلام، وفي الوقت نفسه تعني الفعل المتجسّد... فالمرأة العارية مثلاً يقال إنها امرأة خرساء. أما في العربية فانظري تطابق حروف الحكي والحياكة!

والنسّاج هو من يصنع الكلام، والإنسان يلبس أقواله. وبعد أن يستمع الحائك إلى جدّه النومو الثالث الذي ينفخ من بلعومه الكلام المقدس ويشدّ أمور الحياة ويربطها، فهو ينقلها إلى الرجال عبر النسيج وشيفرته السريّة... لكنه كالكاهن لا يُعطي سرّ الحياكة ولا يورثه إلا لمن وصل إلى المعرفة واستحقّها عن جدارة وحكمة بمباركة الأجداد.

وليست الزراعة والحراثة في أثلام الأرض سوى نسيج الحياة رواحاً ومجيئاً كحركة النول، وكحركة النهار والليل تتوالى علينا، وكارتباط السماء بالأرض والحياة بالموت. حتى ماركو بولو المسافر المغامر الشجاع استعمل فعل الحراثة حين وصف تقنية نسج الحرير الفارسي...

وكما عندنا، نحن المسيحيين يا شمسة، يولد الإنسان عند الدوغو أثماً، لكنه يتطهّر من خطيئة كسر المحظور الأصليّة بالنسج والحياكة بحسب التقليد المقدّس واتّباع درجات المعرفة فيه... وهم يدفنون المكّوك والبكرة مع الميت بعد أن يلفّونه بغطاء على شكل مربّعات باللونين الأبيض والأسود، يُنسج بخيط واحد لا يُقطع ولا تشوبه إذاً أيّ عقدة. فقطع الخيط يعني الضياع، تماماً كما سيكون عند أريان، ابنة مينوس وأخت فيدرا التي يخلّص خيطُها من الموت في المتاهة. وانقطاع الخيط، الملوّن بالأبيض والأسود مداورةً، يعني انكسار تتابع النهار والليل والوقوع في هوّة الفراغ والنسيان والعدم.

ولأننا ننسى يا شمسة، ولأننا جاحدون في جهلنا، نسينا أنّ الحائك، أينما كان في بقاع هذه الأرض، هو الموكل بسرّ الحياة والسلم، والمهدِّد دوماً بغلبة الموت والحرب. أوَليس

نزع الثوب، العري، مرتبطاً بالخطيئة الأولى وبالقصاص، وبسعيٍ لا يهدأ إلى التكفير؟ انظري رسم الإلهة أتينا، كيف أنها تحمل بيد المغزل وبالأخرى الحربة، بيد حكمة الحياكة وبالأخرى الويلات ودمار الحروب... وصار غاندي الحكيم يحيك نسيجه قبالةَ الإنكليز إذ بحسب الحكاية الهندية التي اعتنقها أتباع الخاثرية فإن الإلهة هنغلاج طلبت من هؤلاء أن ينقلبوا من محاربين إلى حائكين كي تمنحهم استمرار الوجود الحرّ، ونعمة انبلاج النهار مجدّداً من عتمة الليل.

وإن كان الحائك الموكل بالسرّ رجلاً إلاّ أنّ الإلهة المعلّمة الملهمة هي دوماً امرأة، يا ستّ شمسة. إمرأة تطلِعُ الضوء من الظلمة والبياض من السواد. وقد سُمّيت تلك الآلهة بالقمريّات، يغزلن من أنوار القمر ضوء النهار الآتي: أتينا وبرسيفون وعشتار البابلية. وحين ينتهين من غزلهنّ يكون العالم قد صار إلى نهايته، إلى الغرق أبداً في العتمة اللاّنهائية... وقد علّمتنا إلهة النسيج السومرية تاغ توغ أن كلّ دور يُشقع على النول إنما هو كلام الأجداد الذي يُثري الذاكرة، نتوارثها ثم نزيد عليها بدورنا... وحين يبدأ نسيان قول الأجداد تتفكّك عقد النسيج وخيوطه، وينتهي العالم فتاتاً دون شكل وغباراً في السديم.

وكما تنصتين إليّ يا شمسة الجميلة، ننصتُ للقول يأتينا من السماء البعيدة أينما كنّا. ففي الصين حائكة العالم ومرسلةُ قول السماء هي النجمة الألف في مجموعة الكنّارة. إنها النول وصنعته، تغزل طيلة السنة، وتنسج أمام نولها على ضفّة نهر درب التبّان. وفي كوكبة نجميّة أخرى يوجد المحراث، رمز نسج الأرض رواحاً ومجيئاً في التراب، وتجرّه عربةُ الدبّ الكبير... أما اعتدال الربيع فهو لقاءُ الحائكة بالمحراث وتوازن عنصري العالم الين واليانغ.

أرأيتِ كيف تتشابه كلّ الحكايات وتلتقي مهما كان مصدرها؟ فالفينيقيون رووا هم أيضاً أنّ الربّ نسج الأرض والسماء نسجاً بخيوط حكمته اللامتناهية حول شجرة كونيّة لا نعرف مدى امتداد أغصانها، هي شجرة الحياة التي مجّدها الشرق من بيزنطية إلى فارس الساسانية إلى الهند وصولاً إلى الغرب... وعند موتنا نقع عنها كالثمار الناضجة لنعود إلى الدوران في حقول أفلاكها وأغصانها التي لا تنتهي... أما بناتُ زوس، إله آلهة الإغريق، فهنّ ثلاث: الكبرى هي الغازلة التي تسحب خيط أيامنا من نور السماء؛ والثانية هي النسّاجة: وتعطي عمرنا تفاصيل الحياة والمصائر البشرية؛ أما الثالثة فهي التي تقطع الخيط وتُوقف النفسَ الأخير. وكانت شعوبُ المتوسط تعتقد أنّ الغيوم ليست سوى أقمشة تنفلتُ إلى خيوطها الأولى حين تمطر السماء، فتصير على صفحة الأرض ماءً مباركة...

ـ هل نعستِ يا شمسة؟

ـ نعم نعستُ قليلاً لكنّ نعاسي ليس رغبةً في النوم. إنه انفتاحي للذّة الكلام ومتابعة الحكاية، تراخي أعضاء جسمي لنسيانها، وليقظة أذنيّ وخيالي وافتهامي، ومتابعتي خيط الرواية الطويلة الجميل الذي يُحضر وجه أبيك في فمك، ويستحضر حكمة جدي النقشبندي عاشق الأفلاك رفيق الرعيان وحيّاك الكتان وخيم شعر الماعز. ذلك السائر على خيط رحمة ربّه إلى شعاع الوجد الكمال، المتدثّر بقناعة ما يحيكه له ربّ العالمين من قول حقّ.

ـ أتابع الكلام إذن فتباتي الليل عندي؟

ـ حتى طلوع الفجر وبزوغ خيط بكرة النهار الأولى... أو انقلاب لون الخيط من السواد إلى البياض.

ـ أحسنتِ يا شمسة.

ويقول أبي الذي لم يكن مجرّد بائع قماش إنّ الغزل والنسج والحياكة ليست صوراً لمعرفة كيفية انعكاس الخلق وماضيه وسفر تكوينه فقط، وليست تقتصر كما يقول أفلاطون على تمحور تشكّل العالم حول مغزل من الماس تدور في فلكه الكواكب والنجوم بحسب حقل دورانه وإيقاع ذلك الدوران، بل أن السياسي هو غازل النسيج الاجتماعي... ومثل قول أفلاطون قال فرجيليوس حين سمّى إله مدينة ديلوس النسّاج.

فتقنية القماش هي في أصل هندسة المدينة. منذ شبك الإنسانُ الأغصانَ لتحديد مساحة سيطرته على الأرض المحيطة، ثم نسج تلك الأغصان سطحاً لبيته، ثم سلالاً لحفظ ثمار الأرض كما يحفظ الثوب ثمار الجسم قبل أن يحفظه كاملاً... بعدها أقام السياجَ نسيجاً لحفظ الحيوان الذي طوّعه ودجّنه وأدخله مساحة سيطرته. هكذا ولد البيت وتعدّد كما في حكاية أليسار الصورية من حياكة خيوط جلد أوّل... تراكم واتّسعت حدوده كما الخيط حول قلب المغزل دوائر دوائر، وحول عمود ذاكرة الجدّ تنداح حلقات بيوت الأولاد والأحفاد مشدودة في حقل جاذبية النسب والميراث... ثم تتّخذ الألوان شعارَها ودلالَتها بحسب البطون والأفخاذ، ألا تدلّ ألوان الخيام في مرتفعات الجزائر على هويّة القبيلة وترسم حيازتها للأرض المحيطة... ألا يبارك شيخُ القبيلة ـ حتى الآن ـ قيام منزل جديد بالكلام الآتي: رُفِعتَ أيها النسيج لتكون بيتاً في ظلال رحمة النبي محمد عليه الصلاةُ والسلام فكنْ محميّاً مباركاً؟؟ أوَلم يكن بيت اليهود، الذين مشوا أربعين يوماً في الصحراء القاحلة المليئة بالأخطار وراء نبيّهم موسى، تابوتَ العهد الذي يضمّ عشرَ سجاجيد من الكتان؟ أولا تمتدّ سجاجيد صلاة المؤمنين المسلمين جميعها إلى القبلة لهندسة ارتقاء الرجاء في الاتجاه الأكرم؟ وفي سياسة الجماعة والمدينة، ألا ينعقد خيط الرأي والقيادة لمن فهم كنه النسيج الإجتماعي وسرَّ اشتباكه؟ ولا يدمّر تلك الهندسة إلاّ اثنين: الآتي من خارج الأسوار، الغريب الفتيّ، حامل رقع الخرائط الجديدة المشدودة بشوق التخليس والمزج والتواصل، أو القائد الجاهل الذي يستمدّ قوة سلطانه من وهن الخيوط وتهلهل النسيج واهترائه... وذلك عدوّ مدينته وأهله وسبب دمارها وموتهم.

جاهل أيضاً مَن لا يدرك سحر الخيط ولعنات النسيج. مَن لا يرى، في معرفته الناقصة ووهم غطرسته، أن لصنعة الحائك أخطارها ومنقلباتها السوداء الشريرة. إفتحي إذن أذنيكِ جيداً يا شمسة وأصغي لما أقول.

فبداية اشتباك الخيط هي الشّباك أيضاً، الأفخاخ، الغشّ والخيانة، الغواية والفتنة بعد الإيهام الكاذب، والاستدراج إلى القتل، إلى العدم.

وعقدة الخيط التي هي بداية كلّ حياكة تتكوّن من طرفين سيكونان خيطاً واحداً، طرف في يد الخير والآخر في يد الشر، طرفٌ في حبل الصرّة والآخر في عقدة المشنقة. وكما نعقد شريط القماش ونضعه على العضو المريض أملاً بإرجاع حالة الجسم كله إلى لحظة انعقاد صرّته عند الولادة

لاختفاء المرض وزواله، كذلك نعقد في الكتابة الشرّانية والسحر الأسود خيطَ المصائر لجلب المرض والتعاسة والجنون والموت. ألم يقل النبيّ حزقيال: هكذا تكلّم يهوه، الويل الويل للّواتي يحكن الأثواب، على اختلاف المقاسات والناس، لكي يوقعن الأنفس في الأفخاخ؟ ألا نكتب، منذ الأشوريين، حسدنا ولوعتنا على خيط من ثوب الحبيبة، ثم نعقده بتضرعاتنا الآثمة حتى لا يدخل عليها محبوبٌ آخر، وحتى تنشفَ في ليل الهجر وحيدة وتنقصفَ في الوحشة نفسها التي هجرتنا فيها؟

ألم تتحوّل «أراخنيه» التي تحدّتْ أثينا بالغزل إلى عنكبوت، إلى أبشع مخلوقات الرب، تغزل ملعونةً بعدم اكتمال غزلها لأنها ممنوعة من لبس ما تغزل؟

وكيف كان للشقيّة ميديا أن تقتل غريمتنا الشابة الجميلة كرييوس سوى بثوب مسموم، مشرّب بسوائل وحوامض حقدها الذي لم يكن يرويه الموت بما أنّ البشر جميعاً صائرون إلى الموت. كان عذابُ النزع الطويل هو هدف ثوب ميديا المسموم... وبعدها تقطيع الجثث وتوزيعها في الأرض، لفكّ نسجها، أو من أجل ذلك أيضاً سلقها بالماء المغلي وأكلها للتقوّي بأليافها الأولى.

فليست معرفة، يا شمسة، إلاّ تلك التي تقف على الأوج. ليست معرفة إلاّ تلك التي تستطيع أن ترى المنقلبَيْن معاً الأبيض والأسود وفي الوقت نفسه. فمن لم يكشف لنا أنّ في القتل لذّة عارمة غَشّنا، وحَفَرَ أمامنا فخَّ الشيطان نقع فيه فريسةً سهلة لصورة الملاك الكاذبة. من لم يعلّمنا لذةَ القتل قتلنا في رأفته بنا واحتقاره لمجمل كائننا.

لكن أليس الوقوف في الأوج ورؤية المنقلبَيْن معاً في الوقت نفسه تمريناً مستحيلاً... لذا قد تكون الرأفة، والاحتقار حتى، سياجاً نحمي به من نحب...

والوقوفُ في أوج القماش هو الوقوف في الحرير. في خرم الإبرة. لذا قال جدي لأبي: لا تتزوّج تلك المرأة، ولا تعد إلى تلك المدينة...

وكان خيط بداية النهار أضاء وجه شمسة النائمة على ذراعي حين استفاقت أمي، ونادتني من غرفتها.

استيقظتُ من النوم وفي أنفي رائحة تقلية قوية. تقلية ثوم وكزبرة لا تقلية بصل. تلك التي تدرّ الريق وتفتح باب المريء واسعاً.

خرجت إلى المصطبة ورحت أتساءل عن أسباب شعوري المستمرّ بالجوع في الفترة الأخيرة. فأنا أكاد لا أتوقف عن الأكل، وأقضي مجمل نهاري في البحث عمّا آكله، أو في معالجة نفسي من التخمة وتعب الأمعاء. لم أتعظ من الإمساك الذي أصابني، ونفخ بطني كالطبل بعد أن أتيت على ثمار نصف حقل الصبّار أمام العجمي، بل أنزلت عليه عشرات أكواز الذرة الصغيرة ذات الحبوب السكريّة الحليبيّة الطعم، ولولا شجرة مشمش سوق البازركان وعلّيق البلدية التي صارت ثماره بحجم ثمار شجرة توت جامع الأمين، لسمّم الإمساك دمي، وقضى عليّ.

صارت الشراهة تأتيني كموجة جامحة لا أملك لها ردّاً، كما تأتيني الرغبة الجنسية فتنفض كلّ جسمي، تَنْثُرُهُ نترةً واحدة، كأنه فجأة يرتفع عن الأرض ليدور في جاذبية أخرى، متفلّتة، في فوضى حركة الريح التي تأتيني أحياناً مشرّبةً برائحة النساء، مشبعةً بها كيفما أدرت أنفي. رائحة النساء الحادّة الخاصة التي تضرب رأسي.

إذاك غالباً ما أقف على طرف المصطبة، أضع أصابعي في فمي، وأصفر عالياً وتكراراً لثلج حتى يحضر إليّ. وبعد كلام قليل أخمّن أنه يفهمه تماماً، نبدأ الركض معاً. أركض بكلّ ما تستطيعه ركبتاي ويقدر عليه قلبي، في كافة الاتجاهات التي يقودني فيها ثلج الذي يسبقني ويعود إليّ مئات المرات. يستحثّني على مزيد من السرعة والوثب. وأشعر أحياناً، ونحن نلتمع بزيت عرقنا على فرائه وجلدي أنه يجرّني، نركض كالمسعورَين معاً، ونعوي معاً عواءً محموماً يزيد من حماسنا، يشجّعنا على متابعة الركض رغم ألم الأعضاء وحريق الركبتين وصفير الرأس. نركض ونثب وثباً فوق الحجارة، جذوع الأشجار المائلة، ركام الجدران، تلال النباتات، حفر الينابيع، أكوام أبواب المخازن، أدراج الطوابق الواطئة... وفي نهاية السباق نلقي بنفسينا معاً في البركة الكبيرة تبترد أعضاؤنا، وتعود إليها سكينة الإيقاع الهادئ الرتيب.

لكنّ ثلج الذي لاحظ تقصيري في الآونة الأخيرة، وتأخّري الواضح عن اللحاق به كما في السابق، راح يُبدي نحوي عدائية متعاظمة. فحين توقّفت عن الركض ذات مرة، وجلست أستعيد أنفاسي على حجر أمام محلات باتا، راح يعوي مقترباً مني، ثم كشّر عن أنيابه وهو ينظر في عينيّ ويزأر زأراً. لم أتردّد. وقفت على قدميّ ومشيت إليه بخطى بطيئة، وبكلّ ما استطعت من قوة صفعته على رأسه فأقعى، ثم رحت أزمجر وأعوي فوق رأسه. وحين رجعتُ إلى حجري رأيته يبتعد باتجاه ساحة رياض الصلح وذنبه بين ساقيه الخلفيّتين إلى جهة البطن لا يتحرك.

وأنا أسير في شارع المعرض عائداً إلى بيتي والعرق يسيل من كلّ جسمي، رحت أفكر بسمنتي الطارئة. قلت إنها السبب.

صحيح أني لست شاباً، لكني لم أشخْ خلال أسابيع. إنها شراهتي وازدياد وزني المطّرد الذي يتعبني هكذا ويبطئ حركتي، أنا الذي عشت طيلة عمري حتى الآن إما نحيلاً أو هزيلاً...

كان الحاج أبو عبد الكريم يقول لأبي: إهتمّ بولدك، إنه ابنك الوحيد، ألا ترى هزاله، ألا تعرف سبب هذا الهزال، ألا تتذكّر نفسك في سنّه؟ إهتمّ به يا أخي، إنها ليست مسألة أكل وتغذية فقط... إنه يشتهي غير ذلك وقد يجلب هذا له المرض والوسواس. ألا تعلم أنّ بعض الشبّان في مثل عمره قد جنّوا للسبب الذي في فكرك. إن كنت لا تريد تزويجه الآن ساعده على الذهاب إلى الحلول الأخرى. أفهمه الحياة يا حاج. سلامة فهمك ومعرفتك. أنا أكلّم لك أناساً معيّنين يذهبون معه إلى حيث يتعلّم. هذا ليس عيباً، إنها أرادة الله ونعمة من عنده، أتتخيّل شقاءك لو لم يضع فيه الله هذه النعمة؟ إفهمني يا حاج أبو نقولا، فأنت من الفهمانين: على مَن نترك مسؤولية الولد، لحكمة مَن نسيبه في قلقه؟ مَن يأخذ بيده قبل أن يأكله الوسواس؟ ألا ترى شحوبه؟

ثم راح الحاج أبو عبد الكريم يضحك بعد أن أذهله احمرار وجه أبي لا وجهي. حسب أني لا أفهم ما يقصده في كلامه المبطّن، وأربكه كثيراً أن يخجل أبي على هذا النحو... لم أفهم أنا خجل أبي الشديد، اعتقدت أن السبب هو نحول جسمه أمام امتلاء جسم أبو عبد الكريم المحمرّ الوجه دائماً، واكتناز جسم ابنه عبد الكريم الذي كان يتردّد على نادي الكمال الجسماني ورفع الأثقال في البسطة. اعتقدت أن السبب هو خجله مني، من إبنه الهزيل الناحل الممصوص العضل، وحسده من صحّة عبد الكريم الذي لو صفعني صفعة واحدة، أو لكمني لكمة واحدة، لهويتُ متكوّماً في أرضي كالخرقة. فحين كنّا نُنزل أثواب القماش الكبيرة من شاحنات تجّار الجملة ـ قبل الحرب بفترة وبعد أن أقلع أبي عن التجارة والاستيراد المتخصّص مكتفياً بالبقاء في المحل ـ كنت أصبحتُ رجلاً مكتملاً ومع هذا كان الحمّالون وصبية المحلّ يهرعون لمساعدتي فيما يحمل عبد الكريم الثوب وحده رغم تعنيف أبيه الفخور الذي حالما يلمح أبي يروح يرفع صوته على ابنه مقلعاً عن مشروع الابتسامة التي سترتسم على شفتيه بعد أن يُلقي عبد الكريم بالحمل عن كتفيه.

كنت أعتقد أن أبي يخجل خجله الشديد من كلام الحاج أبي عبد الكريم المبطّن، أو منّي، أو من نحول جسمه الذي أورثني إياه. لم أفهم السبب إلاّ بعد سنوات، بعد أن استمعت خلسة إلى اعترافات الأستاذ كيفورك، وإلى بكاء أبي المكتوم بعد تلك الاعترافات.

أكاد لا أتوقّف عن الأكل. كأنْ ما ابتلعه لا يهدأ في معدتي. لا يملأها. أجرّب مضغ ما لم أكن أقربه في السابق، نباتاً أو زواحف تدبّ في الأرض أو طيوراً وقعت في شباكي. أكاد لا أنف شيئاً.

لا أرى في شظيّة المرآة الصغيرة، التي وجدتها في سينما متروبول، سوى أجزاء من وجهي ومن جسمي، لذا لا أستطيع أن أرى جلدي وامتلاء أعضائي بالشحم. أرى فقط استدارة أصابع يديّ، وبروز ثدييّ محمولين على كرشي المستدير حين أجلس. حتى أني ما عاد باستطاعتي أن أرى عضوي الجنسي إلاّ حين أجهد لذلك وأنا أتبوّل أو حين تضرب أنفي رائحة النساء وتحرقني الشهوة إليهنّ.

أتذكّر سمنة جسم شمسة، واستداراته الجميلة القديمة قبل أن تبدأ بالذوبان، وأقول إنّ سمنتي بشعة، فهي لا بدّ ترهّل نتيجة الشراهة والكبر في العمر. إنها انحطاط.

لكن كيف تكون انحطاطاً وأنا لم أكن بمثل هذا الشبق الجنسي منذ تركتني شمسة؟ كيف أكون بمثل هذا الشبق إلى الأكل وإلى النساء وأنا أوغل في العمر وفي سني الكهولة؟ لم أعد أعرف كم عمري لكني بالتأكيد تجاوزت الخمسين. كيف يكون ذلك انحطاطاً وأنا أكاد لا أملك السيطرة على شهيتي الكبيرة المفتوحة على كل شيء؟

تلك ميزات الانحطاط، قال أبي وهو يساعدني في إنزال أثواب الحرير الثمينة بمختلف أنواعها إلى الطابق السفلي. إنها عيب عدم السيطرة على شهية مفتوحة كفوهة بئر كبير، انعدام الانتخاب والانتقاء والاصطفاء والتصنيف بحسب الجدارة والجودة. إنه شهية الخلية السرطانية العمياء. إثمها وبراءتها في الوقت نفسه إذ كيف تحاسب الأعمى الذي لا يرى ويخبط خبط عشواء. لا يرى ولايتذكّر...

أنظر حولك قليلاً، أنظر حولك وقل لي ما الذي نبيعه الآن، ما الذي نعرضه للبيع: قماشاً أم تزويره الكيميائي؟ أين هو الخيط في هذا النسيج الذي لا نعرف له ماهيّة ولا أصلاً؟ قل لي هل تسمّي الزبونة القماش أم تشير بإصبعها إلى اللون والرسم؟ وحين تلمسه أو تدعكه بيدها، هل تذهب إلى أبعد من ضرورة الكيّ المتعب؟

من يرى الآن في القماش أصله، منشأه، سفر القوافل؟ من يرى البلدان والأصقاع وتواريخها وحكاياتها مجتمعة كالمعجزة في هذه المدينة؟ من يعرف تاجر القماش؟ من يعرفنا؟ يدخلون، يشترون ويخرجون بدقائق. لا يتكلّمون سوى في مساومة الأسعار حتى ما عاد من حاجة للكراسي في بهو المحلّ، ما عاد من حاجة للطاولات الصغيرة توضع عليها فناجين القهوة وكؤوس الشاي ومنافض السجائر...

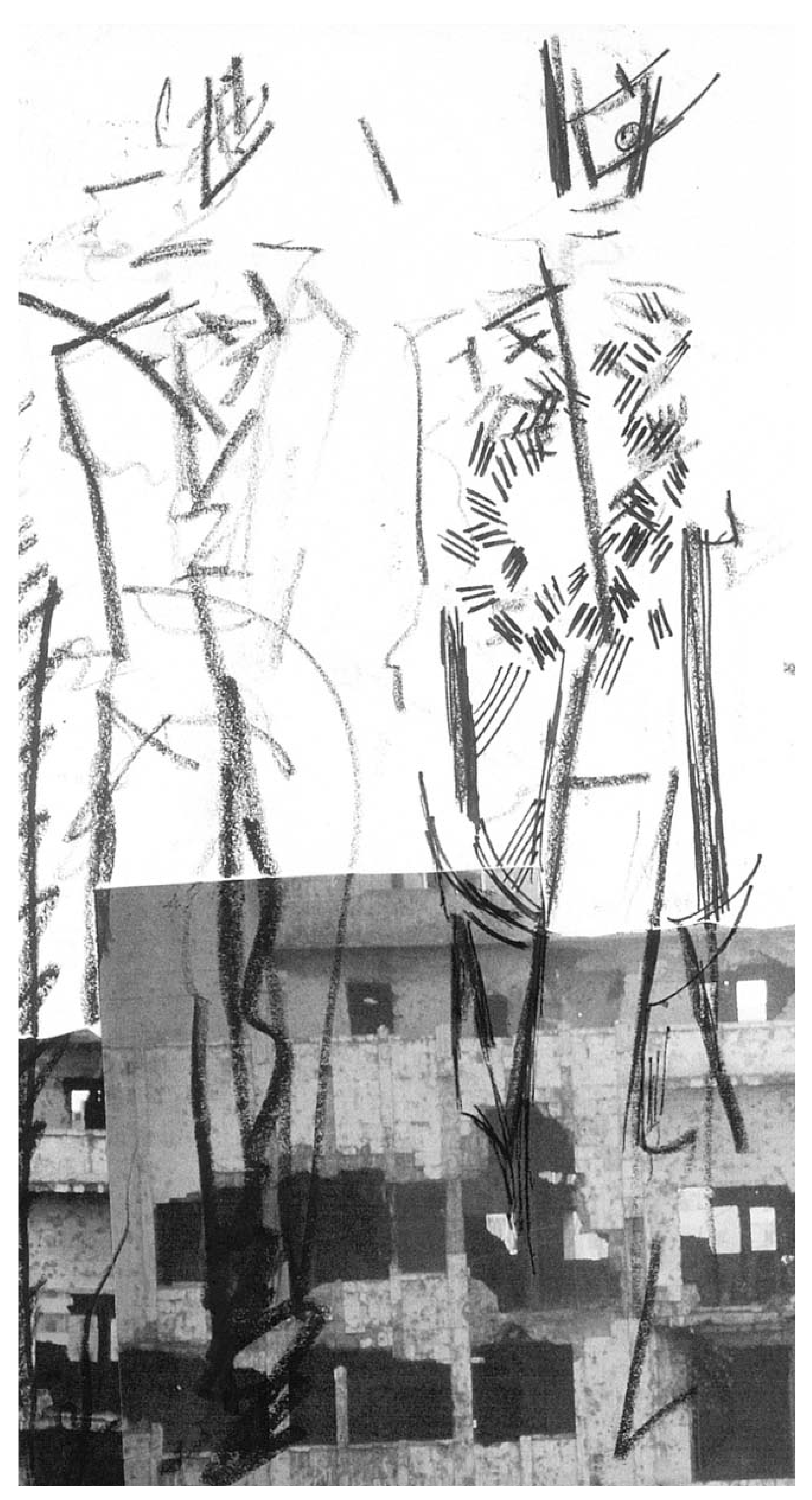
لا يحتاج الديولين للحديث أو الوقت. لا يحتاج للرفقة أو المسايرة. إنه مسرع، ولا يرافق أصحاب المشاوير البعيدة. منذ حضر إلى المدينة تركت العرائس الجهاز في صناديق الجدّات الريفيات. فضّلن نسيان فولكلوره المخجل، أزيائه القديمة وألوانه المطفأة وتطريزه الذي يضيّق النفس. مخجل ولا يذكّر به سوى أثواب الأطلز اللامع وورق الكريبون التي يرتديها راقصو الدبكة في التلفزيون...

وحدها اللعبة التي بقيت نائمة على سرير العروس الريفية، في غرفة نومها الجديدة الفورمايكا، كانت تلبس أقمشة قديمة مخاطة باليد... حتى الخوري فضّل الديولين ثوباً للآحاد على ثرثرة الخورية التي لا تنتهي، وعلى رفقة عانسات جمعية الحبل بلا دنس. ولو لم ترفض الفتيات الأرمنيات المضي في تطريز «بطرشين» من الديولين، لاستغنى في قداسيه عن كلّ تلك الأثواب والعلاقات القديمة.

ـ لكن أليس الفقر سبباً يا أبي؟

كيف يكون الفقر هو السبب وبلادنا هذه ما كانت يوماً في مثل الثراء التي هي عليه اليوم؟ ألا ترى عدد الشركات الأجنبية التي تنمو مكاتبها كالفطر في وسط البلد. لم نكن يوماً في مثل هذا الرخاء والازدهار...

لا، إننا ندخل عصراً آخر، ندخل وهماً يقول بضرورة توزيع كلّ شيء على كل الناس. وتعتقد الشارية الفقيرة الآن حين تدخل المحلّ أن لها سلطة السيدة ذات الشأن. تعتقد أنها في سيرها على هواها في الشوارع والأسواق أكثر حرية ممّا كانت عليه من قبل... لكن عصر الديولين ـ كما ترى ـ ربط



مهن النساء بالقماش حين تدنّت قيمته، وصار مقروناً بالموضة والطيش والنوفوتيه: تلك التي، كما حدّثتك في السابق، أُعطيت عنواناً لبيع أي شيء في أي مكان لمجرد البيع ومراكمة الربح منفصلاً عن سيرة الحياة...

وهي تسير في الشوارع وفي الأسواق، وهي تتحرك في وسط الزحام، هل شممت رائحة امرأة تلبس البوليستير أو الديولين، هل نظرت إلى قماشة جلدها؟ هل انتبهت كيف تسير امرأة تلبس ثياباً داخلية من النايلون، كيف تمشي وكيف تتكلّم؟ مُرَّ ذات يوم في سوق النورية أو سوق سرسق وانظر التاجرات المصرية يشترين أكواماً من تلك الثياب لفتيات بعن حليهنّ هناك، كل ما يملكن لقاء هذا الرأسمال الجديد الذي سيلهب خيال السياح العرب وتجّار المواسم من أهل الصعيد... هل تتخيّل رائحة الأسرّة في تلك الغرف؟ روائح كريهة جديدة وأمراض جلدية جديدة لأنسجة جديدة. إكزيما وقوباء سوداء. تبثّر وتقرّح ونزّ سرّيّ تحت كهرباء الخيط. تعرّق أسيدي ولزوجة حمضيّة. إفرازات الكثرة الهجينة في الازدحام القصري.

إنها تجارة أسواق اليوم. إنه أفول عصر بائع القماش، لا تاجره فقط، وانتهاء عصر الخيّاطة بالطبع. تعرف مدام رحمة أنه لم يعد للأجسام العمومية سوى عموم المقاسات وتعميم ذوق المصنع والنوفوتيه.

إنها حكاية بيوت هذه المدينة أيضاً. هي نفسها، أنظر البرادي، الستائر، أقمشة المقاعد، أغطية الأسرّة، الشراشف، المحارم. نسيج خفيف متشابه ولا يعمّر، لا يورَث، متطاير ولا يترك أثراً، مثل فولكلور التلفزيون.

ـ إنها النهاية إذن يا أبي؟

لا، إنها نهاية من كان مثلي، وفي مثل سنّي. نعرف أننا لا نملك ما يكفي من الوقت لمعرفة ما سوف يأتي، لتصوّر ذلك في المخيّلة. إننا لذا محكومون بالحنين إلى ما مضى وبالتفكير أسفين بحسنات ما فات وانقضى. لا، ليست النهاية في أيّ شيء لمن كان في عمرك، لأنه سيرى تصحيح الخطأ وتقويم المعوجّ. لا شيء يزول هكذا، إلى الأبد من انحطاطه، فلا تستمع إلى مبالغاتي وحنيني ولا تصدّق كلّ ما أقول.

لا شيء ينقضي هكذا ويذهب قبض الريح من فساده. أليس مخترع القنبلة الذرية التي أبادت مئات الآلاف بلحظة هو نفسه مخترع الكربون١٤، الوسيلة الموثوقة لتحديد عمر الأشياء وتأريخ ذاكرة باطن الأرض؟ أليست ساعة المحطة المتوقفة على الثامنة والربع صباحاً في هيروشيما هي الصورة التي أطلقت لديه قطارات الذاكرة؟ والصورة الفوتوغرافية، وبعدها التلفزيون، ألم يخترعهما البشر حين أدركوا أن إيمانهم بات مهتزاً، قليلاً، ضعيفاً؟...

ـ كيف أفعل إذن يا أبي؟

فقط أنظر جيداً وطويلاً للديولين، ولا تستسلم للنسيان.